«الانســـان»

﴿والمبادىء الثلاثة﴾

«تأليف»

«الاستاذ : محمد شوكان»

ماجستير في اللغة العربية

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

اسم الكتاب : الإنسان و المبادیء الثلاثة

اسم المؤلف : الأستاذ محمد شوكان

تاريخ الطبعة الأولى : ذوالقعدة ١٤٠٨ھ ١٩٨٨م

الثمن : - - - - - - - -

طبع فی : مطبعة المكتبة العلمية بلاهور .

لصاحبها : الشيخ عبيدالحق الندوی

١٥ - شارع لیک ، لاهور

الاهداء

﴿أقدم كتابى هذا إلى كل من يستعمل تفكيره بعمق واستنارة﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وعلى سيدنا محمد رسول الله خاتم الانبياء ومن والاه وعلى من سار على منهجه واهتدى ـــ اما بعد .

اخى القارىء الكريم ، سلام الله عليكم ورحمته ، وبعد : ان كتاب «الانسان والمبادىء الثلاثة» الذى هو بين ايديكم الآن ، قد اطلعت عليه قبل طباعته ، ولهذا فانى انوه عنه فى تقريظى هذا له فى بضع صفحات ، لأبين لكم اهمية هذا الكتاب .

هـذا الكتاب ، قد ألفه بلطف الله المنان الاستاذ العلام محمد حسين شوكان وهو من بلاد الشام ، هذا الاخ العلام انا اعرفه شخصيا منذ زمان ، لانى قد عايشته لفترة طويلة وقد جرى فيها نقاش كثير بينى وبينه ، وما من يوم إلا وبينى وبينه لقاء نتناقش فيه فى المواضيع التى تهم الامة الاسلامية ، ونتكلم فى المشاكل التى تواجهها الانسانية فى مشارق الأرض ومغاربها . فلذا انا أعرف المؤلف العلام معرفة جيدة ولا اعرف احدا فى باكستان يعرفه معرفتى اياه واعتبر ان هذا فضل على من رب الأنام وليس لأحد فيه موقع جدال او كلام انا أشهد وشهادتى هذه على بصيرة وبينه ، ان المؤلف العلام ليس

من أولئك الكتاب الذين اتخذوا الكتابة مهنة ارتزاق لهم ، وليست لديهم القدرة الكافية، والاهلية التامه ، لأنهم لم يدرسوا العلوم على ايدى الاساتذة الموثوقين من ناحية المعارف الاسلامية ، ومن الناحية التربوية الشرعية ، ولكن شيخنا هـذا هو قـد اتم دراسة العلوم الاسلامية (بجميع اصولها وفروعها) على ايدى الأساتذة الكبار الموثوقين من جميع الاعتبارات، ثم انه قد اغترف الثقافة الاسلامية، وتلون فكره بلون اسلامى خاص ، وهو لا ينظر الى الكون والحياة والانسان الا نظرة المسلم المؤمن، ولا ينظر الى المشاكل العصرية على انها مشاكل اقتصادية او عائلية بل هو يرى ان هذه المشاكل مشاكل انسانية تتطلب حلولا تتمشى مع ما عليه الانسان من غرائز وحاجات عضوية وقد وضع الاستاذ أسساً لحل مثل هذه المشاكل فى ضوء منهج قويم ، ومنهجه هذا مبنى على الاسس والمبادىء التى لم تؤخذ الا من الكتاب والسنة والادلة العقلية القطعية، وهذا فضل من الله على المصنف العلام وعلى امثاله العلماء حملة دعوة الاسلام والحمد لله خالقنا ، خالق الاكوان وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

وبعد اعطاء هذه اللمحة الموجزة عن المؤلف ، أود ان انوه بما جاء فى كتابه «الانسان والمبادىء الثلاثة» فهذا الكتاب يحتوى على المعارف والافكار التى تنقسم الى قسمين ـ القسم الاول قد بين فيه المؤلف ما هو الانسان من حيث تعريفه وما هى ميزاته وخصائصه ، واما القسم الثانى فقد تعرض فيه للمبادىء الثلاثة (الاسلام والرأسمالية والاشتراكية ومنها الشيوعية) وقد ناقشها مناقشة

علمية ، وبين فيها وجه الصواب من الخطإ . فالكتاب ذو اهمية بالغة من نواح شتى ، وليس فى وسعى ان اتكلم عن جميعها ، وانما اتكلم جهد المقل وقدر الاستطاعة ، وادعو الله العلى القدير ان يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه .

فالاستاذ العلام فى مستهل كتابه هذا فاتح الكلام من تعريف الانسان - وانا اعتقد ان هـذا التعريف للانسان هو تعريف جامع ومانع - وبعد هذا التعريف تكلم الأستاذ العلام عن ميزات الانسان وخصائصه التى يتميز بها عن سائر المخلوقات من جمادات وحيوانات وجن وملائكة . وان الاستاذ العلام قد تكلم عن القوة الفكرية (قوة التفكير) التى لا توجد الا لدى الانسان وهذه الخاصية (قوة التفكير) لم تخلق الا عند الانسان ولهذا قد شرف الله الانسان على سائر مخلوقاته فاسجد له الملائكة .

ان المصنف العلام لـم يبين هـذا فحسب بل هـو بين كيفية التفكير وتكلم عن اتمام هذه الكيفية واثبت بالادلة القطعية خطأ أولئك الذين يظنون ظنا (وهو عندهم كاليقين) ان الفكر هو انعكاس المادة على الدماغ فحسب ، ولكن استاذنا هـذا قـد اتى بالبراهين والادلة التى لا تدع مجالا لأى شك ان الفكر ليس هو انعكاس المادة على الدماغ ، وبين بكل وضوح وجلاء ان عملية التفكير ترتكز على امور اربعـة وهى وجود الواقـع والحواس والدماغ والمعلومات السابقة .

وسيجد القارىء الكريم البحث عنها فى الكتاب الذى بين يديه وانه سوف يستمتع بـه كثيرا ان امعن النظر فيه .

بعد بيان التعريف وحقيقة التفكير تعرض الاستاذ الى خاصيات الانسان الاخرى وما فطر عليه من غرائز وحاجات عضوية ومنها غريزة التدين التى لا توجد الا فى الانسان نفسه ، فتكلم الاستاذ الفهام عن جبلة التدين ومقتضياتها كالتقديس والتحميد من قبل العبد لله عزوجل وكتنظيم العلاقات ، التى توجد بين الله وبين خلقه ، والعلاقات التى توجد بين الانسان وبين الأشياء التى فى الطبيعة والتى يشبع بها الانسان جوعاته ، ثم بين علاقة الانسان بنفسه وبأهله ثم بعباد الله المؤمنين انفسهم ثم بعباد الله المؤمنين وغيرهم من الناس وهذا التنظيم لا يمكن اتيانه من قبل البشر باسلوب سليم ونهج قويم وطريق رصين، لان عقل البشر تنقصه الشروط اللازمة التى تجعل هذا التنظيم تنظيماً دقيقا يتلائم مع الاهداف السامية ويتفق مع فطرة الانسان وقناعاته العقلية ، ويضاف الى ذلك ان حق تنظيم علاقات الخلق انما هو حق للخالق وحده . وان سأل سائل كيف لا يستطيع العقل البشرى ان ينظم هذه العلاقات بشكل صحيح؟! فالجواب على ذلك من ان العقل البشرى يختلف من شخص الى شخص آخر ومن عصر الى عصر آخر ، حتى اننا نرى نحن بانفسنا ان عقل الانسان فى صغره يختلف عن عقله فى شبابه وان عقله فى شبابه يختلف عن عقله فى كبره ، حتى تصل حال الانسان الى ان يضعف عقله الى حد يفقد معها جميع معارفه ، وهو فى منتهى كبره كما اخبرنا الله سبحانه وتعالى فقال (ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ـ) . فشيخنا برهن على هذا واثبت بالادلة العقلية القاطعة وبين أن تنظيم هذه العلاقات لابد وان يكون من قبل خالق البشر

وطبقا لاوامر الله ونواهيه ، والنظام الإلهى هو وحده الذى يستطيع ان يوفر للبشرية جمعاء الأمن والطمانينة والرخاء والرفاهية ، وان لم يكن هذا فالانسان سيشقى وسيبقى هذا الشقاء الى الابد الا ان يعود الانسان الى هذ التنظيم الالهى ويتقبله قبولا حسنا عن رضى القلب وارتياح الجنان .

بعد الكلام فى التفكير وتنظيم العلاقات تعرض الاستاذ العلام لموضوع القضاء والقدر وحل معضلة القضاء والقدر بأسلوب قوى وأوضح ما هو الصواب من الخطإ فى هذا الباب ، وتكلم بتفصيل عن الايمان بالقضاء والقدر واثبت بأدلة عقلية ان ليس هناك اى جزئية من مسألة القضاء والقدر الا وهى مؤيدة بالأدلة القاطعة، فشيخنا اجاد فى هذا الموضوع واشاد فلله الحمد على ذلك .

ثم تطرق الاستاذ الى موضوع المبدإ وقلما يجد القارىء الكريم مثل هذا البحث والنقاش فى كتاب فكرى قد كتب فى عهدنا الحاضر. ان الشيخ اشاد واجاد فى هذا البحث وادى البحث حقه اداء تاما واتم الموضوع بأسلوب رصين ورشيق ونجح نجاحا باهراً لانه يرى ان العقيدة لا بد وان تأتى عن تفكير مستنير ، ولهذا البحث اهمية خاصة لاننا نجد فى العالم اناساً لا يؤمنون بخالق الكون والحياة والانسان وانهم يسندون ما فى الوجود الى الحركة المادية، ويسندون تنظيم المادة الى عملية الصدفة ويعتقدون ان ليس وراء هذا الكون اى خالق مدبر له ويرون ان الانسان لا يحتاج الى اية هداية من الله عزوجل — لان الخالق لا وجود له فى تفكيرهم . وهناك اناس مع اعترافهم الضمنى بان وراء هذا الكون خالقاً خلقه ، ومع

هذا* فانهم يرون ان ليس لهذا الخالق اى حق فى ان يسن قانوناً أو أن يضع نظاما لتنظيم شؤون خلقه وتحديد علاقاتهم . بل يعتقد هؤلاء ان تحديد العلاقات او التقنين او وضع النظام انما هو من حق الانسان فحسب . وهناك طائفة أخرى تؤمن بوجود الله ولكن هذه الطائفة قد جعلت الدين كهنوتيا لا علاقة له بالحياة الدنيا ولا بتنظيم شؤون الحياة البشرية، ولكن شيخنا قد ابطل وجهات النظر هذه وابطل هذه الآراء التى لا تستند الى اى دليل عقلى او نقلى بل اثبت هو بالادلة القطعية الاخطاء التى توجد فى هذه الافكار والآراء .

الشيخ لما تكلم عن المبدإ فقال معرفا له ان المبدأ هو عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام ثم قال عن العقيدة . ان العقيدة هى فكرة كلية عن الكون والانسان والحياة وعما قبل هذه الحياة الدنيا وعما بعدها وعن علاقتها بما قبلها وبما بعدها . وان سأل سائل ما هو النظام المنبثق عن العقيدة عند الشيخ ؟! فيجيبه الشيخ ان النظام المنبثق عن العقيدة هو معالجات لمشاكل الانسان وتنظيم وتحديد لعلاقاته . ثم ان الشيخ اتى بجميع تفاصيل المبدإ ولم يترك شيئا من جزئيات هذا البحث الا وقد أتمه على احسن وجه ولقد عالج الموضوع بدقة وعمق واستنارة .

وسيجد القارىء الكريم نفسه كأنه قد وجد ضالته المنشودة فى طيات هذا الموضوع البالغ الاهمية .

اما من حيث مصدر المبدإ فيجيب الشيخ على هذا فيقول — المبدأ اما ان ينشأ فى ذهن شخص عبقرى او ان يكون بوحى من

الله تعالى الى شخص، ثم يكون هذا الشخص ماموراً بتبليغه الى الناس، ثم يقول الشيخ ان المبدإ الصحيح هو الذى يوحى به الى شخص من الله الخالق ، لان الخالق هو خالق الكون والانسان والحياة وعلمه محيط بكل شى . واما المبدأ الذى ينشأ فى ذهن شخص عبقرى فهو . مبدأ باطل عند الشيخ، ولكن لم هذا المبدأ مبدأ باطل ؟ فرداً على هذا السؤال يقول الشيخ لان مثل هذا المبدإ ناشىء عن عقل محدود ويعجز عن الاحاطة بالوجود ولان فهم الانسان للتنظيم عرضة للتفاوت والاختلاف والتأثر بالبيئة التى يعيش فيها مما ينتج النظام المتناقض المؤدى الى شقاء الانسان .

خلاصة القول ان المبدأ الذى ينشأ فى ذهن شخص عبقرى فهو مبدأ باطل ـــ باطل فى عقيدته وباطل فى نظامه الذى ينبثق عنه .

ثم ان المؤلف قد ضمن كتابه قطعا ادبية مع المحافظه على موضوع الكتاب نفسه وفى هذه القطعات الادبية سيجد القارىء الكريم متعة ادبية الى جانب احتوائها على معالجات فكرية .

اليوم نحن نعيش فى العالم وفيه ثلاثة مبادىء . المبدأ الاسلامى والمبدأ الرأسمالى والمبدأ الاشتراكى الشيوعى . فشيخنا تكلم ببسط وتفصيل عن كل هذه المبادىء ـ ثم قال عن المبدإ الصحيح أنه هو المبدأ الذى يتفق مع فطرة الانسان وكان مبنيا على العقل ، والمبدأ الخاطىء كل مبدإ يخالف فطرة الانسان ولا يكون مبنيا على العقل. ومعنى الاتفاق مع الفطرة اى أن المبدأ الصحيح يقرر ما فى فطرة الانسان من عجز واحتياج الى الخالق المدبر او بعبارة اخرى هو ما يوافق فطرة التدين . ومعنى كونه مبنيا على العقل ان لا يكون مبنيا

على المادة او على الحل الوسط .

الكتاب بين ايديكم ايها القراء الاعزاء وبامكانكم ان تقرؤه بدقة وعناية وامعان وسوف تجدون ما فيه من الفائدة . والله اسأل ان ينفع به من اراد ان يتبع سبيل الهدى ، والله وراء القصد وهو الموفق والهادى الى الصواب

القاضى

محمد كفاية الله

﴿المقدمة﴾

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم . والصلاة والسلام على جميع انبيائه ورسله ، وعلى من سار على نهجهم واهتدى بهديهم الى يوم الدين ، وبعد: منذ ان كنا طلاباً فى المرحلة الثانوية ، كنت أجد غربة بين ماكنا ندرسه فى المدرسة من آراء وافكار ، وبين ما كنا نجابه به فى المجتمع من آراء وأفكار تختلف عن الآراء والأفكار التى كنا ندرسها فى المدرسة ، كنا ندرس فى المدرسة - على سبيل المثال - آراء وأفكار الخوارج والمعتزلة والجهمية . . . وندرس نقضها وكيفية الرد عليها . . . فاذا ما خرجنا من المدرسة ودخلنا المجتمع ، كنا لا نجد احداً من هؤلاء الخوارج او الجهمية او المعتزلة . . . يدعونا الى آرائه وأفكاره ، وانما كنا نجد فى المجتمع الاشتراكى الشيوعى الذى كان يدعونا لأفكاره وآرائه ، وكنا نجد الديمقراطى الرأسمالى الذى كان يحسن لنا معنى الحرية التى انبثقت عن المبدإ الذى يحمله . . . وكنا كلما التقينا بهم أو هم التقوا بنا كنا لا نفقه كثيراً مما يحدثوننا به . . . وكنا نشعر فى قرارة انفسنا ان هؤلاء وهؤلاء من الناس ليسوا على شىء من الحق ، ولكن لم تكن عندنا المقدرة العلمية التى تمكننا من كشف افكارهم وآرائهم ، وبيان حقيقة ما هى عليه .

كنت اعلل نفسى بان مثل هذه الآراء والافكار سوف ندرسها وندرس نقضها عندما نكون فى المرحلة الجامعية ، عند ما تكون العقلية عندنا قد نضجت تماماً .

وشاء الله ان ادخل الجامعة ، وقد كنت فى شوق عظيم لمعرفة ما يحمله المنهج الجامعى لنا من معالجات لمثل هذه الآراء والافكار .

تسلمت الكتب المقررة علينا ثم اخذت اقلب هذه الكتب صفحة صفحة لعلى أجد فيها ما كنت آمل ان أجده من معالجات لهذه الافكار التى اخذت تتغلغل فى المجتمع حتى وصل تأثيرها فيه الى حد جعل بعض الاشخاص المرموقين فى المجتمع يمتدحونها فى كتاباتهم وفى كتبهم .

فوجئت ـ وانا اقلب صفحات الكتب ـ اننى امام نفس الافكار والآراء التى كنا ندرسها وندرس نقضها فى المرحلة الثانوية ، ولكن بشىء من التوسع ، فقد صار الواجب علينا الآن ان ندرس اسماء هذه الفرق بالتفصيل وان ندرس الأماكن التى كانوا يتواجدون فيها وان ندرس اسماء الوقائع التى خاضوها ، واخيراً علينا أن ندرس النتائج التى تمخضت عنها كل معركة من هذه المعارك ثم نعلق عليها تعليقاً يبين وجه الخطإ فيها . . . وأخذت اسأل نفسى : لماذا ندرس هذه الافكار والآراء مع انه لم يبق لها ولا لاصحابها أى اثر أو أى تأثير فى المجتمع ؟! لماذا ندرس مثل هذه الآراء والافكار وقد اصبحت تاريخاً ونترك دراسة ونقض الآراء والافكار التى يموج بها المجتمع الآن ؟! لماذا ندرس آراءاً وافكاراً كلما

ماتت او كادت ان تموت بعثنا فيها الحياة من جديد فتثير هذه الافكار والآراء البلبلة فى اذهان الناشئة من ابناء هذه الأمة وتولد عندهم الشكوك والتساؤلات ، فيسأل كل واحد منهم نفسه هل حصل ذلك بالفعل بين صفوف المسلمبن ؟! وكيف حصل ذلك ؟! ولماذا حصل ذلك ؟! وما وجه الصواب والخطإ فيما حصل ؟! . . . لماذا نملأ عقول الناشئة بمثل هذه الافكار والآراء ثم نتركهم يقابلون حملة الافكار الوافدة بدون ان نسلحهم بسلاح العلم عنها والمعرفة بها وكيفية نقضها وبيان وجه الخطإ فيها .

لقد جرف تيار هذه الافكار الوافدة كثيراً من شبابنا فانساقوا معه وذلك لأنهم لم يتعلموا شيئاً عن هذه الآراء والافكار .

لماذا لا ندرس شبابنا نقض هذه الافكار ونكشف لهم عن حقيقة الواقع التى هى عليه ليعرفوا حقيقة واقعها ، وليستطيعوا ان يردوا على حملتها ودعاتها ؟! . . . كاشفت بعض زملائى بما يدور بخلدى وما يجول فى فكرى من حيرة واضطراب حول هذا الموضوع . وما كدت انهى كلامى معهم حتى وجدت ان عندهم من الحيرة والاضطراب/حول نفس الموضوع/اضعاف ما عندى من ذلك . ولكن كان كل واحد منا يجد نفسه ان لا حول له ولا قوة .

واخيراً قررت ان ادرس هذه الافكار والآراء فى معزل عن الدراسة الجامعية ، لأطلع على هذه الآراء والافكار ولاعرف وجه الصواب او الخطإ فيها .

اخذت اقرأ كل ما وقعت عليه يدى من الكتب التى ترجمت هذه الافكار والآراء . ثم اخذت أقرأ ما حصلت عليه من الكتب التى ألفت حول هذه الافكار والآراء . سواء منها ما كان قد ألف بقصد الاشادة بها ام كان ذلك التأليف من اجل نقضها وكشف الخطإ فيها .

ثم اخذت اتصل بحملة هذه الافكار والآراء فاناقشهم فى آرائهم واكشف لهم وجه الخطإ فيها .

كان الشيوعيون يحاولون ان يحصروا البحث والنقاش فى الناحية الاقتصادية وفى مشكلة العمال وما يقع عليهم من ظلم وما يقتطع منهم من فائض الجهد . . .

وكنت اصر معهم على ان يكون النقاش منصباً على عقيدة المبدإ لأنه اذا صحت عقيدة اى مبدإ فقد صح كل ما تفرع عنها من افكار ومعالجات ، اما اذا كانت عقيدة اى مبدإ عقيدة باطلة فان كل ما يتفرع عنها لا يكون الا باطلا .

وكان دعاة الديمقراطية الرأسمالية يحاولون ان يضفوا على معنى كلمتى الديمقراطية والحرية مسحة اسلامية . . .

وكنت احصر البحث معهم فى المعنى الاصطلاحى/عند الغرب الرأسمالى/لهاتين الكلمتين . بالاضافة الى وجوب بيان عقيدة المبدإ الاساسية التى بنى عليها الغرب الرأسمالى نظام حياته .

وكلمة هنا اريد ان اذكرها للتاريخ وهى : ان الشيوعيين المبدئيين هم الذين كانوا يحترمون النقاش ويقدرونه حق قدره

حتى فى الاوقات التى يكونون فيها على خلاف فى الرأى مع من يناقشهم .

وكنت أجد العنت والمشقة مع انصاف المفكرين وانصاف العلماء وحتى مع انصاف الشيوعيين .

اما الطامة الكبرى فاننى كنت اراها متمثلة فى أولئك الذين لا يحسون بشيء مما يدور حولهم ولا يعلمون عنه أى شيء ومع ذلك فانهم يدعون انهم يعرفون كل شيء عنه .

بعد تخرجى من الجامعة التحقت فى سلك التعليم ، وعند ما بدأت اعلم طلاب المرحلة الثانوية ، وجدت ان عند هؤلاء الطلاب مثل ما كان عندنا من حيرة واضطراب حول موضوع الافكار التى دخلت المجتمع . . . بل لقد كانت اسئلة بعضهم تنم على انهم قد جرفهم التيار معه فانساقوا خلف هذه الافكار بدون ان يعرفوا شيئاً عن حقيقتها التى هى عليها .

كنت بين الحين والحين اشرح للطلاب حول هذه الافكار وا بين لهم شيئاً من حقيقتها . . . فكنت اشرح لهم هذه الافكار والاحظ انفعالاتهم نحو ما اشرحه لهم . . . فكنت الاحظ على الغالبية منهم ارتياحاً لما اقوله لهم ، وكنت اسمع من بعضهم اقتراحاً حول تأليف كتاب يتضمن كشف وبيان هذه الافكار . . .

ان فكرة تأليف كتاب فى هذا الموضوع كانت تراودنى منذ ان تخرجت من الجامعة ولكن الحياة لم تسعفنى ، فقد ناءت على الحياة بكلكلها فلم تترك لى متسعاً من الراحة النفسية او الراحة البدنية ، ومعلوم ان كلا الراحتين يجب توفرهما لمن يريد ان يكتب رسالة

الى صديق له ، فكيف الحال بمن يريد ان يؤلف كتاباً ليطلع عليه العدد الكبير من الناس ؟!.

منذ ان كنت طالباً فى الجامعة اصبت بمرض فى ساقى ثم لازمنى هـذا المرض . . . ويشاء الله ان يشتد على المرض فيقعدنى عن العمل . . . عندها اخذت ادون كتابى هذا ، وقد كتبت معظمه وانا مضطجع على السرير لانى ما كنت لأستطيع ان اجلس على الكرسى لمدة طويلة .

لقد سميت هذا الكتاب «الانسان والمبادىء الثلاثة» وقد بدأته ببحث الانسان ، وذلك لان الانسان هو المقصود فى الاصل بهذا البحث ، اما بحث المبادىء الثلاثة فاننى اخرت بحثه وذلك لان المبادىء فى الاصل قد جاءت لتعالج مشاكل الانسان نفسه فاذا ما وضحت حقيقة الانسان ما هى ؛ سهل على القارىء عندها ادراك المبدا الصحيح من المبدا الخاطىء من هذه المبادىء الثلاثة .

ان هذا الكتاب كتاب فكرى ومع ذلك فقد حاولت ان اجعل الاسلوب الذى كتبته به هو أقرب الى الاسلوب الادبى منه الى الاسلوب العلمى . بل لقد ضمنته قطعاً ادبية محضة مع المحافظة على الافكار التى عالجها الكتاب . ولقد ذكرت فيه العديد من الأمثلة . كانت الغاية من ذكرها هو توضيح الفكرة التى جاء المثال من اجلها .

قد يلاحظ القارىء بعض الجمل المكررة او شبه المكررة ، وقد كانت الغاية من هذا التكرار هى .

اما ان الجملة التالية قد اشتملت على معنى جديد قد او جبه السياق . . . فذكرت الجملة الاولى مع هذا المعنى الجديد .

واما ان يكون التكرار من أجل عدم تحويل فكر القارى الى ما سبق ذكره فذكرت له الجملة ثانية .

هذا واننى إذ أقدم كتابى هذا الى كل من يستعمل تفكيره بعمق واستنارة فاننى لأرجو الله تعالى ان ينفع به اصحاب البصائر من عباده وان يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم فهو حسبى وعليه اعتمادى واليه معادى ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

محمد شوكان

بسم الله الرحمن الرحيم

«الانسان»

الانسان هو الكائن الحي، المفكر الثابت الخلقة على صورة ظاهرة .

ويعتبر هذا التعريف هو التعريف الدقيق لواقع ما عليه الانسان اذ انه قد جمع أهم الصفات التي اتصف بها الانسان وقد منع غيره من الدخول فيه .

فكلمة - الكائن الحي - قد اخرجت الكائنات غير الحية كالجمادات وغيرها .

وكلمة - المفكر - اخرجت الكائنات الحية غير المفكرة كالطير والحيوان . . . .

وجملة - الثابت الخلقة على صورة ظاهرة - اخرجت الجن والملائكة .

فانهم وان كانوا من الكائنات الحية . وانهم وان كان لهم نوع من التفكير الخاص بهم . . . الا ان الاصل في صورة خلقهم انها مستترة، ثم انهم يستطيعون ان يظهروا باشكال مختلفة من الصور .

وبهذا يكون تعريفنا للانسان بانه/الكائن الحي المفكر الثابت الخلقة على صورة ظاهرة/هو التعريف الصحيح . اذ انه هو الذي ينطبق على واقع الانسان من حيث هو انسان .

ومن ابرز خصائص هذا الانسان انه ذو غرائز وحاجات عضوية الى جانب كونه مفكراً ،

﴿ الفكر أو العملية الفكرية عند الانسان ﴾

الفكر هو حكم على واقع، ويتم التوصل الى الفكر عن طريق الحواس التى تنقل الواقع الى الدماغ مع وجود معلومات سابقة يفسر هذا الواقع بحسبها .

فالفكر اذاً هو احساس بالواقع زائد معلومات سابقة عن هذا الواقع الذى ولد ذلك الاحساس : وتتم عملية الاحساس بالواقع بامور ثلاثة وهى .

١ـ الواقع المحسوس .
٢ـ حواس سليمة تنقل الاحساس بالواقع الى الدماغ .
٣ـ دماغ سليم يستطيع ان يستقبل ما تنقله الحواس اليه .

وهذه العملية فى هذه المراحل تولد احساساً بالواقع، والاحساس موجود عند الطير والحيوان . . . كما هو موجود عند الانسان . ويمتاز الانسان عن غيره من طير وحيوان . . . بوجود معلومات سابقة عنده عن الواقع، وعنده القدرة على ربط المعلومات السابقة بالواقع، او ربط الواقع بالمعلومات السابقة، وعندها تتحول عملية الاحساس عنده من عملية احساس بالواقع الى عملية حكم على هذا الواقع ما هو .

وبهذا يظهر لنا ان العملية الفكرية عند الانسان تقوم على أسس اربعة وهى .

١ ـ الواقع الذى يراد الحكم له او عليه سواء أكان هذا الواقع محسوساً ام كان له تصور فى الذهن .

٢ - حواس سليمة تنقل الاحساس بالواقع الى الدماغ .

٣ - دماغ سليم يستطيع ان يستقبل ما تنقله الحواس اليه .

٤ - وجود معلومات سابقة تفسر هذا الواقع، مع وجود قدرة على ربط الواقع بالمعلومات السابقة. هذه هي الامور التي تتم بموجبها العملية الفكرية عند الانسان . فاذا ما استكملت هذه العملية الامور الاربعة بشروطها فقد وجد عند الانسان الفكر عن الواقع الذي احس به . اما اذا اختل شرط من شروط هذه العملية فانه لا يوجد عند الانسان فكر عن ذلك الواقع. او انه يوجد عنده فكر عنه ولكنه فكر فيه من الخلل بقدر ما طرأ على شرط او شروط العملية الفكرية من خلل .

(الاخطاء التي تطرأ على العملية الفكرية واسبابها) .

اذا ما اجملنا الأمور التي تؤثر على صحة العملية الفكرية فاننا نجدها لا تخرج عن امور ثلاثة وهي .

١ - قصور فطري منشأه محدودية المجال الفكري عند الانسان، فاذا ما تجاوز الانسان حدود المجال الفكري عنده فان احكامه كلها تكون احكاماً خاطئة وذلك لأنها احكام لم تبن على الواقع وانما بنيت على الوهم او الخيال .

٢ - قصور طارئ منشأه حدوث حدث يطرأ على بعض الحواس او على الدماغ وفي مثل هذه الحالة فانه يطرأ خلل في العملية الفكرية بقدر الخلل الذي طرأ على الحاسة او على الدماغ ما لم تكن هناك عملية تعويض عن ذلك الخلل الذي طرأ على الحاسة او على الدماغ .

٣ - قصور معرفي ومنشأه احد امور ثلاثة وهي .

١ - عدم معرفة الواقع كما هو عليه تمام المعرفة .

٢ - عدم استكمال المعلومات السابقة عن الواقع الذى يراد الحكم له او عليه .

٣ - عدم الدقة فى ربط المعلومات السابقة بالواقع او ربط الواقع بالمعلومات السابقة عند الحكم .

هذه هى مجمل الامور التى تؤثر على صحة العملية الفكرية عند الانسان. فأما الخطأ الناجم عن القصور الفطرى فان سببه هو تجاوز الانسان لمجال الفكر عنده وسبب هذا التجاوز هو ان الدائرة الفكرية عند الانسان هى اوسع من المجال الفكرى عنده .

فاذا ما اطلق الانسان لفكره العنان/ضمن هذه الدائرة الفكرية الارادية/وتجاوز الواقع - وهو المجال الفكرى عنده - الى الوهم والخيال فان احكامه تكون كلها احكاماً خاطئة لأنه انما أصدر هذه الاحكام حسب هذا الوهم او هذا الخيال لا حسب الحقيقة التى عليها الواقع .

فمثلا: الشخص الذى يعبد الصنم يتوهم ان هذا الصنم إله أو انه يقربه من الا لـه . وهذا الوهم يدفع بالشخص ليتقرب لهذا الصنم بالطاعة والولاء وليتوسل اليه بالشفاعة والدعاء ثم انه يعتقد ان هذا الصنم سيضره ان هو خالفه وانه سينفعه ان هو اطاعه ثم يدفعه هذا الوهم لان يضع نظاماً بينه وبين ذلك الصنم ليتعرف من خلاله على الامور التى يرضى عنها ذلك الصنم وعلى الامور التى لا يرضى عنها وقد كان الناس فى الجاهلية يضعون اقداحاً عند سادن الصنم فاذا هم احدهم بعمل ما فانه يأتى الى سادن الصنم فيأمره السادن بان يتقرب

الى الصنم بالهدايا والدعاء وبان يقدم له الصلوات والقرابين فاذا فعل الشخص ما طلبه السادن منه عندها يتقدم السادن من جعبة الاقداح ثم يخرج قدحاً منها فاذا وجد على السهم كلمة افعل مكتوبة عليه فرح ذلك الشخص فرحاً شديداً واعتقد ان الصنم قد قبل دعاءه وصلواته وقرابينه وهداياه وانه قد رضي عن ما يريده من الفعل وقد اذن له به . . . . واما اذا خرج السهم وعليه كلمة لا تفعل حزن ذلك الشخص حزنا شديداً ثم عاد بمزيد من الهدايا والقرابين يقدمها لسادن الصنم حتى يسحب له سهماً آخر. وهكذا يستمر هو فى تقديم الهدايا ويستمر السادن فى سحب السهام حتى يخرج له سهم مكتوب عليه افعل وعندها يعتقد ذلك الشخص ان الصنم الآن قد رضى عنه واذن له القيام بالعمل الذى يريد .

والناظر الى مثل هذه الاحكام التى صدرت وتصدر عن عباد الاصنام يجد انها احكام غير صحيحة وذلك لان ذلك الشخص لم يقصر تفكيره على المجال الفكرى الذى عنده بل لقد اطلق لنفسه العنان فتجاوز المجال الفكرى — وهو الواقع — الى الوهم او الخيال. ولو انه قصر فكره على الواقع الذى امامه ثم فكر فى واقع ذلك الصنم لوجد ان واقعه انه حجر لا يضر ولا ينفع ولا يبصر ولا يسمع . . . .

وهكذا كل حكم تجاوز به الانسان المجال الفكري عنده فانه انما يصدر احكاماً خاطئة وذلك لانها احكام عقلية بنيت على غير المجال العقلى .

قال تعالى : «واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ما

تعبدون قالوا نعبد اصناماً فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم او يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» .

هذا هو واقع القصور الفطرى وهذه هى بعض نتائجه وتلك هى اسبابه .

واما القصور الطارئ بسبب خلل يطرأ على بعض الحواس او على الدماغ فان هذا الخلل يؤثر على العملية الفكرية ما لم يحصل تعويض عن ذلك الخلل .

فمثلاً : الشخص الاحول الذى يرى الاشياء على غير طبيعتها فانه يجب عليه عند ما يريد ان يحكم عليها أن يعوض الخلل الذى عنده فيستعيض بحاسة السمع عن حاسة البصر عنده فيحكم على هذه الاشياء حسب ما يسمع عنها لا حسب ما يراها هو .

وكذلك الشان عند ما نرى قلما منغمساً جزء منه فى الماء فاننا نراه على شكل يوحى بانه مكسور فلواننا حكمنا عليه حسب رؤيتنا له فان حكمنا هذا يكون حكماً خاطئاً وذلك لان واقع ما عليه القلم انه غير مكسور، وانما كانت رؤيتنا له على شكل يوحى بأنه مكسور بسبب عملية الانكسار التى يحدثها سطح الماء فى الاشياء المنغمسة جزء منها فيه . فالخلل هنا قد تسرب الى العملية الفكرية عن طريق رؤيتنا للواقع على غير حقيقته التى هو عليها وفى مثل هذه الحالة فانه يجب علينا ان نعوض عن هذا الخلل بالمعلومات السابقة عن سطح الماء وما يحدثه من انكسار .

وكذلك الشان بالنسبة لمختل الشعور فانه لا يكون حكمه على الاشياء دقيقاً اذا حكم عليها حسب احساسه وشعوره هو بها وذلك بسبب الخلل الذى طرأ على الدماغ عنده فيجب عليه اذا اراد ان يحكم على اى شىء أن يعوض عن ذلك الخلل الذى عنده، فعليه أن يحكم على الاشياء تبعاً لحكم اصحاب الشعور والاحساس السوى عليها لا حسب شعوره واحساسه هو.

هذا بالنسبة للقصور الطارىء على العملية الفكرية بسبب خلل قد طرأ على احدى الحواس او الدماغ . اما القصور المعرفى فاسبابه هى

١ - قد يكون بسبب عدم ادراك الواقع — قبل الحكم عليه — تمام الادراك وذلك مثل ان يرى شخص شبحاً ما فى الظلام وقبل ان يتحقق من واقعه ما هو يطلق عليه النار لانه ظن ان ذلك الشبح انما هو حيوان مفترس، ثم يتبين له انه انما اطلق النار على احد أصدقائه: فالخطأ هنا قد نتج بسبب القصور المعرفى اذ ان بامكان ذلك الشخص وضمن مقدوره ان يتحقق من واقع ذلك الشبح ما هو قبل ان يطلق عليه النار ولكنه لم يفعل بل انه لقد اصدر عليه حكمه فحكم عليه انه حيوان وانه مفترس فاطلق عليه النار بناء على هذا الحكم الخاطىء الناجم عن ذلك القصور المعرفى وهو عدم التحقق من واقع الشىء الذى حكم عليه ذلك الشخص .

٢ - وقد يكون القصور المعرفى بسبب نقص فى المعلومات فمثلاً : الطالب الذى عنده مبادىء علم النحو فلا يطلب منه ان يعرب الجمل المعقدة بسبب التقديم والتأخير او الحذف. فلا يطلب منه

ان يعرب قوله تعالى : «وان احد من المشركين استجارك فاجره» ولا ان يعرب قوله تعالى : «انما يخشى الله من عباده العلماء» . الا اذا كان ذلك الطالب قد اعطى معلومات عن اعراب مثل تلك الجمل فاذا لم تكن عنده معلومات عن اعراب مثل هذه الجمل فانه سوف يعربها اعراباً خاطئاً .

٣ - وقد يكون القصور المعرفى بسبب عدم الدقة فى ربط المعلومات السابقة بالواقع او ربط الواقع بالمعلومات السابقة . مثل ان يزور مريض الطبيب ثم يذكر له جميع اعراض المرض الذى عنده ولكن الطبيب لم تكن عنده الدقة عندما قام بربط هذه الاعراض بما عنده من معلومات سابقة او انه ربط هذه الاعراض بمعلومات سابقة عن مرض آخر فيصف دواءاً للمريض بناء على هذا الربط الخاطىء، وقد يكون فى هذا الدواء حتف المريض . وهكذا فاننا نرى ان كل قصور يؤثر على العملية الفكرية .

الانسان والمجال العقلى عنده

ان المجال العقلى عند الانسان هو الواقع والآثار الدالة على وجود واقع .

ويختلف الحكم العقلى على الواقع عن حكمه على وجود واقع قد دلت الآثار على وجوده . فالحكم العقلى على الواقع يكون حكما على وجوده وحكما على ذاته ما هو .

واما الحكم على وجود واقع قد دلت الآثار على وجوده فهو حكم عل الوجود وعلى الاوصاف الضرورية المتعلقة بهذا الوجود الدالة عليها تلك الآثار .

وسبب هذا الاختلاف هو ان الحكم على الواقع قد كان حكما مبنياً على الاحساس بالواقع نفسه لنم ان نفس الواقع قد نقلت الحواس الاحساس به الى الدماغ وبناءاً على معلومات سابقة عن هذا الواقع حكم العقل عليه ما هو ذاتا ووجودا .

اما وجود واقع قد دلت الآثار على وجوده فان الحس لم يتصل بنفس ذلك الواقع وانما الحس قد وقع على الأثر الدال عليه. والاثر لا يعطينا معلومات اكثر من وجود المؤثر . الا اذا كانت هناك معلومات خاصة بالمؤثر . اما مجرد الاثر فانه انما يدل على وجود المؤثر فقط . فمثلاً : ان الناظر الى هذا الكون والى ما فيه من اجرام والى ما هو عليه من حركة ونظام يدرك تمام الادراك ان وراء هذا الكون وجود خالق خلقه اذ لو لا وجود الخالق لما وجد هذا الخلق العظيم .

وعليه فان ادراك وجود الله وادراك الصفات الضرورية المتعلقة بهذا الوجود — من قدرة على الخلق وعلم به واحاطة وان الخالق واجب الوجود ازلى فى وجوده مستغن بنفسه عن غيره — فهذا كله من المجال الفكرى عند الانسان وقد دلت عليه الآثار المتعلقة به . اما ادراك ذات الخالق فانه ليس من مجال العقل لان الحس لم يتصل بتلك الذات العلية، وكذلك الشأن بالنسبة لما يريده الخالق من خلقه فان الآثار لا تدل عليه وان الحس لم يتصل به فهو ليس من المجال العقلى وانما هو علم غيب فلا يدرك الا عن طريق الادلة السمعية التى يخبرنا بها علام الغيوب/وهو الله تعالى /عن طريق الرسل الذين ارسلهم الى بنى الانسان .

﴿انواع التفكير﴾

تختلف نتائج العملية الفكرية قوة وضعفاً باختلاف نوع التفكير الذى سارت عليه العملية الفكرية حتى النتيجة .

فاذا ما اجملنا انواع التفكير عند الانسان فاننا نجدها لا تخرج عن انواع ثلاثة . وهى .

١ - التفكير السطحى وهو الحكم على الواقع بدون تعمق فى معرفة ما هيته وخواصه وما يتعلق به من اوصاف له . وذلك مثل ان يسمع شخص ما من الاذاعة ان رئيس دولة ما قد قام بزيارة دولة اخرى . . . فينقل ذلك الشخص الخبر كما سمعه بدون اى محاكمة له . وهذا النوع من التفكير هو ما عليه السواد الاعظم من الناس وخاصة عند وجود الانحطاط الفكرى فى امة ما .

٢ - التفكير العميق وهو الحكم على الواقع بعد دراسته وادراك خواصه وما يتعلق به من صفات أو أحداث وذلك مثل ان يسمع شخص ما نفس الخبر السابق فيأخذ فى تحليل هذا الخبر ودراسة هذه الزيارة . لم حصلت ؟ وما العلاقة القائمة بين الرئيس الزائر والدولة المزارة ؟ ! وهل هناك امر خلافى بين الدولتين فقام الرئيس الزائر بهذه الزيارة من أجل تسوية الخلاف ؟ ! أم هل قام رئيس الدولة المزارة بزيارة دولة الرئيس الزائر فقام هذا الرئيس برد الزيارة ؟ وهل هناك علاقة عمالة او علاقة عمل بين الدولتين فقام الرئيس الزائر من أجل هذه العمالة او العمل بزيارة الدولة المزارة ؟ وهكذا فان صاحب الفكر العميق لا يحكم على الاشياء الا بعد دراسة

وتمحيص، وبالطبع فان حكمه على هذه الزيارة يكون ادق من حكم صاحب الفكر السطحي عليها .

٣ ـ التفكير المستنير وهو الحكم على الواقع بعد ادراكه وادراك اوصافه المتعلقة به وادراك ما يدور حوله من احداث وهل لها علاقة به ام لا .

فصاحب الفكر المستنير يدرس كل ما درسه صاحب الفكر العميق عن تلك الزيارة ثم يزيد في الدراسة، فيدرس الاحداث العالمية ثم يحاول ان يعرف هل لهذا الزيارة علاقة بهذه الاحداث. واذا كانت لها علاقة فلماذا حصلت في هذا الوقت بالذات ؟! ثم يدرس الاجواء السياسية العالمية ويحاول أن يتوصل الى معرفة ما اذا كان لهذه الزيارة علاقة بهذه الاجواء السياسية العالمية ام لا . . . وهكذا فان صاحب الفكر المستنير لا يكتفي بان يدرس الواقع وما يتعلق به بل يزيد على ذلك فيدرس ما يدور حول هذا الواقع ويحاول ان يعرف فيما اذا كان لهذا الواقع علاقة بما يدور حوله ام لا، وما نوع هذه العلاقه. وهذا النوع من التفكير هو اعلى انواعها. واصحابه يختلف وجودهم في المجتمعات باختلاف ما عليه نفس المجتمع، فالمجتمعات الناهضة فكرياً يكون وجودهم متوفراً وفي المجتمعات المنحطة فكريا يكون وجودهم نادراً او منعدماً .

هذه هي انواع التفكير عند الانسان وهذه هي اقسامه وهذه هي نسبة وجوده في المجتمعات .

الانسان والمعلومات السابقة

ان من الامور التي امتاز بها الانسان عن غيره من الكائنات

الحية . كالطير والحيوان . . . .انما هو الفكر . وبالرجوع الى تعريف الفكر، وما هى اركانه وكيف تتم العملية الفكرية عند الانسان ؟ ! . ندرك ان من اهم اركان الفكر، انما هى المعلومات السابقة، وندرك ان هذه المعلومات ، هي التى امتاز بما الانسان عن غيره من الكائنات الحية لان هذه المعلومات هى التى ترفع الاحساس/الذى يشترك فيه الطير والحيوان مع الانسان/الى درجة الفكر ، اذ لو لا وجود المعلومات السابقة لبقى الواقع فى درجة الاحساس به عند الانسان كما هو الحال بالنسبة للطير والحيوان. فمثلا : لو اننا عرضنا على شخص امى حرفاً من حروف الهجاء ثم طلبنا منه ان يعطينا حكما على هذا الحرف الهجاىء ما اسمه والام يرمز . فان ذلك الشخص لا يستطيع ان يعطينا حكما صحيحاً عن اسم هذا الحرف . فاذا ما عرضنا الحرف عليه اكثر من مرة فانه يحس ان هذا الحرف هو نفس الحرف الذى عرض عليه اول مرة ولكنه لا يستطيع ان يعطينا حكما صحيحاً عنه مع انه قد احس به وعرف انه هو نفس ما يعرض عليه فى كل مرة .

فاذا ما اعطى الرجل الامى المعلومات عن ذلك الحرف ثم عرض عليه وسئل عنه فانه يستطيع ان يحكم عليه ما هو وما اسمه حسب ما اعطى من معلومات عنه . فيقول هذا حرف السين مثلا او حرف الصاد .

فالاحساس عند ذلك الشخص بذلك الحرف قد تحول من درجة الاحساس به الى درجة ادراكه والحكم عليه ما هو ، والذى جعل الاحساس يتحول الى درجة الفكر انما هى المعلومات السابقة والتى هى من خصائص الانسان .

فلو اننا قمنا بنفس العملية مع طير او حيوان . . . فاننا لا يمكن ان نحصل على نفس النتيجة التى توصلنا اليها مع ذلك الانسان، وذلك لان الطير والحيوان ليست عندها القابلية لان توجد عندها معلومات سابقة لا عن الاشياء ولا عن الافكار التى تتعلق بالحياة،فهى عندما تتعامل مع الاشياء فانما تتعامل معها حسب الاحساس الغريزى وعند ما تتعرف عليها فانما يكون ذلك حسب الرجع الغريزى عندها .

واما ما نشاهده من بعض الحركات التى يقوم بها الطير والحيوان فانها، اما ان تكون غريزياً أى من اجل اشباع جوعاته. واما ان تكون تقليداً للانسان كما تقوم الببغاء بتقليد اصوات بعض الكائنات وكما تقوم القردة بتقليد حركات الانسان . . . واما ان تكون تلك الحركات والافعال انما هى ناجمة عن التدريب والتعود، فقد يقوم الانسان بتدريب بعض الطير والحيوانات عن طريق اشباع جوعاتها لتقوم ببعض الحركات والافعال وكلما قامت بالحركة او الفعل اعطاها الانسان طعاماً حتى تعتاد القيام بهذه الحركات او الافعال عن طريق التدريب ثم تصبح عندها عادة .

وعلى هذا فاننا ندرك ان وجود قابلية تقبل المعلومات السابقة والعمل بها ووجود القدرة على ربط هذه المعلومات بالواقع من اجل الحكم عليه ما هو ، انما هو خاص بالانسان فقط . وقد اشار القرآن الكريم الى هذه الخاصية التى خص بها الانسان من قبل ان يخلق الانسان نفسه . قال تعالى : «واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون وعلم آدم

الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .» فالايات تبين ان الانسان قد خلقت فيه قابلية التعليم وقد خلقت فيه القدرة على الربط بين الاسماء ومسمياتها حسب ما يعطى من معلومات عنها، فآدم عندما عرضت عليه المسميات بعد ان اعطى معلومات عن اسمائها، استطاع ان يربط بين كل اسم ومسماه مهما كثر عدد تلك المسميات .

اما القدرة على التعامل بالرموز فانها كذلك خاصة من خاصيات الانسان فبالاضافة الى ادراك وجودها فى الانسان من ادراكنا لواقع ما عليه الانسان، فان القرآن قد أشار اليها فى اول آياته نزولا، وقد ذكرت هذه الخاصية بعد لفت نظر الانسان الى خلقه والى اطوار ذلك الخلق .

قال تعالى : «اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .»

فكلمة — اقرأ — هنا تشمل القراءة المسموعة والمكتوبة . وكلاهما له صلة بالقدرة على التعامل بالرموز حسب ما يعطى من معلومات عنها فاذا اعطى القراءة سماعاً، سمع وحفظ وقرأ، وإذا اعطيت له عن طريق الكتابة تعلم وقرأ .

ثم جاءت كلمة — علم بالقلم — لتعطى التعامل بالرموز عن

طريق الكتابة اهمية خاصة اذ ان الكتابة هى رموز للاحرف التى تتكون منها الكلمات فالجمل فالكتاب . . .

فاذا ما اعطى الانسان رموز الاحرف ثم اعطى كيفية تكوين الكلمات من تلك الأحرف وما ترمز له كل مجموعة من هذه الأحرف ثم اعطى كيفية تكوين الجمل من هذه الكلمات . . .

فانه يستطيع بعدها ان يكتب العديد من المقالات او الكتب ، فلو اننا قمنا بنفس العملية مع الطير او الحيوان فاننا لا نحصل على نفس النتيجة التى حصلنا عليها مع الانسان، وذلك لان التعامل بالرموز والقدرة على ربط كل رمز بما يرمز اليه هو خاصة من خاصية الانسان وحده فى هذه الحياة دون غيره من الطير والحيوان . . .

وبعد ان تبين لنا ان الانسان هو وحده الذى عنده قابلية التعامل بالمعلومات السابقة وانه هو وحده الذى عنده القدرة على ربط المعلومات بالواقع او ربط الواقع بالمعلومات وانه هو وحده الذى يتحول عنده الاحساس من مرحلة الاحساس بالواقع الى مرحلة ادراكه والحكم عليه ما هو بعد ادراك خواصه .

بعد هذا كله فانه يجدر بنا ان نوضح ونبين كيف تتكون المعلومات السابقة عند الانسان .

(المعلومات السابقة كيف تتكون عند الانسان ؟)

المعلومات السابقة لا تخرج فى جملتها عن نوعين اثنين من المعلومات فقط .

اما النوع الأول فهى معلومات تتكون بحسبها مفاهيم عن الاشياء من حيث ماهيتها وحجمها ولونها وطعمها وخواصها وملاءمتها للطبع الانسانى ام لا . . .

واما النوع الثانى فهى معلومات تتكون بموجبها مفاهيم عن الحياة من حيث علاقات الانسان ومنها علاقته بالاشياء التى يشبع بها جوعاته . . .

فاما النوع الاول من المعلومات وهى التى يتوصل بها الى مفاهيم عن الاشياء ما هى . . .

فان باستطاعة الانسان وفى حدود قدرته ان يتوصل اليها، اما بنفسه ، واما ان يأخذها عن غيره ، فالمعلومات التى تتعلق بالعلوم المخبرية كالكيمياء . . . والمعلومات التى تتعلق بالعلوم التجريبية كالزراعة والصناعة . . . فان الانسان يستطيع ان يجرى عليها تجاربه وان يلاحظ النتائج.. وبعد ان تتكرر هذه النتائج حتى تصل الى حد القطع او الى قريب من حد القطع ، عندها تتكون معلومة عند الانسان عن هذا الشىء حسب النتائج التى حصل عليها ثم تؤخذ هذه النتائج عنه وتصبح معلومة سابقة عن ذلك الشىء .

كما ان الانسان قد يلاحظ افعال او حركات تصدر عن غيره فتوجد عنده معلومة بمجرد ملاحظتها، او بعد متابعة هذه الحركة أوتلك الافعال حتى يصل الى معلومة عنها، فالانسان الاول ــ مثلا ــ قد اخذ عن الغراب معلومة كيف يدفن الميت، وكانت هذه المعلومة قد عرفها الانسان من مجرد الملاحظة .

قال تعالى : «واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما انا بباسط يدى اليك لا قتلك انى اخاف الله رب العالمين انى اريد ان تبوء باثمى واثمك فتكون من اصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فاصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوءة اخيه قال ياويلتى اعجزت أن اكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة اخى فاصبح من النادمين .» فابن آدم لم يعرف كيف يتصرف بأخيه بعد قتله له ولكنه عند ما لاحظ فعل الغراب وكيف انه حفر حفرة فى الارض ثم دفن فيها شيئاً ما، عندها عرف ابن آدم كيف يتصرف باخيه بعد هذه الملاحظة . ثم شاعت هذه المعلومة التى اخذت من ملاحظة فعل الغراب بين بنى الانسان حتى اليوم . وكذلك الشأن بالنسبة للشخص الذى اكتشف القوة البخارية فانه لاحظ ان غطاء ابريق الشاى كان يندفع بقوة عند ما اخذ الماء فى الغليان فتابع هذه الحركة حتى توصل الى اكتشاف القوة البخارية ثم شاعت بين الناس فاصبحت عندهم كمعلومات سابقة، ومثل ذلك مكتشف الرادار فانه لاحظ ان الطير الخفاش يطير فى الظلام ومع ذلك فانه لا يصطدم بالاشياء المحيطة به فتابع هذه الحركة حتى توصل الى معرفة ان الخفاش عند ما يكون طائراً يرسل اصواتاً وحسب صدى هذه الاصوات يحدد اماكن السلامة من اماكن الخطر، وعندها تكونت معلومات عن رجع الصدى عند ذلك الشخص ثم شاعت فى الناس . وهكذا فاننا نجد ان الانسان يستطيع ان يكون معلومات سابقة عن

الاشياء وبناءاً على هذه المعلومات السابقة يرتفع عنده الاحساس بالشيء الى درجة ادراكه والحكم عليه ما هو، واما الطير والحيوان . . . فانها انما تتعامل مع الاشياء حسب الاحساس الغريزى عندها فلا تحتاج الى معلومات عنها ولا تستطيع ان تتوصل الى المعلومات السابقة عنها لا بنفسها ولا من غيرها .

فمثلا : الذباب والدبور كلاهما يحب العسل وكلاهما يعيش مع النحل صانع العسل ولكن الذباب او الدبور لم يستطيعا ان يأخذا عن النحل كيفية صنع العسل مع حبهما الشديد له . علما بان الدبور يصنع خلايا تشبه خلايا النحل الشمعية ولكنه لا يضع فيها العسل وانما يصنعها من اجل ان يضع فيها بيوضه فقط . وهذا يعطينا ان الطير والحيوان . . . ليس فى مقدورهما التوصل الى معلومات سابقة لا عن الاشياء ولا عن الحياة . هذا بالنسبة للمعلومات عن الاشياء .

اما المعلومات عن الحياة فانه يختلف واقعها عن واقع المعلومات عن الاشياء لان المعلومات عن الحياة تتعلق بعلاقات الانسان وتتكون عنها مفاهيم عن الحياة وهذه المفاهيم عن الحياة اذا كانت من المجال الفكرى عند الانسان فان الانسان يستطيع ان يتوصل اليها بنفسه وذلك مثل الحكم على واقع الكون والانسان والحياة فان العقل البشرى السوى يدرك انها محدودة ويدرك انها محتاجة ويدرك انها مخلوقة غير ازلية وذلك لان واقع الكون والانسان والحياة من المجال الفكرى عند الانسان ، ثم من ادراكه لمحدودية وعجز واحتياج الكون والانسان والحياة ومن ادراكه انها مخلوقه . . . يدرك ان لها خالقاً خلقها اذ لو لا وجود الخالق لما وجد الخلق

ثم يحتم العقل بان يكون الخالق واجب الوجود . ازلى فى وجوده مستغن بنفسه عن غيره قادر على الخلق عالم به . . . ثم من ادراكه لوجود الخلق يـدرك ان هناك علاقة خالقية بين الخالق وبين خلقه يفرض وجود هذه العلاقة وجود خالق ومخلوقات له .

فالانسان هنا ادرك ما هى الحياة وادرك ماذا قبلها وهو وجود الخالق وأدرك علاقة الحياة بما قبلها وهى العلاقة الخالقية . وهذا كله من المفاهيم عن الحياة والتى هى مفاهيم تقع فى المجال الفكرى عند الانسان . واما المعلومات التى تكون مفاهيم عما بعد هذه الحياة وعن علاقة هذه الحياة بما بعدها وعن علاقة الانسان بهذه الحياة وسبب وجوده فيها . . . فان هذا كله ليس من مجال الفكر عنده وانما هى امور غيبية فلا يستطيع الانسان التوصل اليها والحكم عليها حكما صحيحاً الا بعد ان تأتيه معلومات عنها من علام الغيوب وهو الله تعالى عن طريق الرسل الذين ارسلهم الله الى العباد . .

هذه هى الكيفية التى يتوصل بها الى المعلومات السابقة سواء أكانت هذه المعلومات مما يتوصل بها الى مفاهيم عن الاشياء او مما يتوصل بها الى مفاهيم عن الحياة وعن علاقات الانسان بربه وبنفسه وبالاشياء التى يشبع بها جوعاته وبالآخرين الذين يعيش معهم فى هذه الحياة ثم ان هذه المعلومات وكيفية التوصل اليها وكيفية ربطها بالواقع انما هى من خصائص الانسان وحده فلا يشركه فيها غيره من طير او حيوان سواء أكانت تلك المعلومات عن الاشياء أم كانت عن الحياة .

﴿الغرائز والحاجات العضوية﴾

الغرائز والحاجات العضوية هى اسماء لمسميات لا يقع الحس على ذاتها ، وانما يدرك وجودها من ادراك الأثر الدال عليها . وهذا الأثر هو الرجع الغريزى او الرجع العضوي . وتحدد انواع الغرائز والحاجات العضوية تبعا لتحديد نوع الرجع الذى تحدثه الغريزة او الحاجة العضوية . فالرجع الذى تحدثه الحاجة الى النوم/وهو النعاس/غير الرجع الذى تحدثه الحاجة الى الطعام/وهو الجوع/ والرجع الذى تحدثه غريزة حب البقاء/وهو حب كل ما يخدم الذات وكراهية كل ما يهدد بقاءها او سعادتها/غير الرجع الذى تحدثه غريزة التدين عند الانسان/وهو حب التقديس

غير انه مع كثرة هذه الانواع للرجع فانها لا تخرج فى جملتها عن قسمين اثنين فقط وهما .

١ - رجع يكشف عن وجود حاجات عضوية .

٢ - رجع يكشف عن وجود غرائز .

وعند النظر الى الرجع الذى يكشف عن وجود غرائز نجد انه أنما يدل على وجود غرائز ثلاث وهذه الغرائز هى .

١ - غريزة حب البقاء ومظهرها او الرجع الدال عليها هو حب كل ما يخدم بقاء الذات واسعادها وحب كل ما يساعد على استمرار هذا البقاء وتلك السعادة .

وكراهية كل ما يهدد بقاء الذات أو بقاء سعادتها وكراهية كل ما يساعد على تهديد استمرار بقاء الذات أو يساعد على تهديد استمرار سعادتها .

٢ ـ غريزة بقاء النوع ومظهرها او الرجع الدال على وجودها هو حب كل ما يخدم بقاء واسعاد النوع أو يساعد على استمرار هذا البقاء واستمرار هذا الاسعاد له . وكراهية كل ما يهدد بقاء او اسعاد النوع وكل ما لا يساعد على استمرار اسعاده وبقائه .

وهاتان الغريزتان يشترك فيهما كل من الانسان والطير والحيوان . . . على السواء .

٣ ـ غريزة التدين ومظهرها او الرجع الدال على وجودها هو حب التقديس عند الانسان .

وغريزة التدين هي خاصة بالانسان فلا يشركه فيها غيره من طير وحيوان . . . فالانسان منذ ان وجد في هذه الحياة يقدس ولا يزال يقدس .فهو يقدس من يعتقد انه وراء وجوده في هذه الحياة او يقدس من يعتقد ان له علاقة بمن هو وراء وجوده . ولم يخل عصر من العصور الا والانسان كان يقدس فيه . سواء أكان ذلك المقدس صنماً ام شجراً ام شمساً ام قمراً . . او كان المقدس هو الله تعالى . فالانسان مفطور على حب التقديس وغريزة التدين عنده تدلنا على ما فطر عليه من حب لهذا التقديس .

﴿ الفرق بين الغريزة والحاجة العضوية ﴾

تختلف الحاجة العضوية عن الغريزة في امور ثلاثة وهي .

اولا : ان اشباع الحاجات العضوية ضرورة من ضرورات الحياة ولهذا كان اشباعها حتمي فاذا لم تشبع الحاجة العضوية عند الانسان فانه يموت . ويتمثل هذا الاشباع في كل ما تتوقف عليه

الحياة مثل الاكل والشرب والنوم والتنفس والخروج . . . . «قضاء الحاجة .

واما اشباع الغرائز فانه ليس مما تتوقف الحياة على اشباعها ولهذا كان اشباعها غير حتمي .

ثانياً : ان الامور التى تثير الحاجات العضوية هى من داخل اعضاء الجسم . كالجوع والعطش والنعاس . . . وكل حاجه عضوية انما تثار من داخل اعضاء جسم الانسان . سواء أكان هناك فى الخارج ما يثيرها ام لم يكن ، فالجوع مثلا يثيره الجهاز الهضمى عند الانسان عند الحاجة الى الطعام . سواء اكان هناك طعام يقع عليه حسه ام لا واذا حصلت الحاجة فانها لا يمكن ان تصرف الا باشباعها . فمثلا : الحاجه الى الماء تلح على الانسان لاشباعها ولا تنصرف عنه بتعليلها او بمما طلتها او بصرف ذهنه عنها .

اما الغرائز فان المثير لها امر خارجى اى ليس من اعضاء الجسم وهذا الامر الخارجى اما ان يكون لـه واقع فى الخارج او ان يكون خطوراً ذهنيا . فمثلا . غريزة حب البقاء لاتثار الا اذا وجد فى الخارج ما يهدد ذلك البقاء ، مثل ان يرى شخص حيوانا يريـد ان يفترسه ، عندها تثار الغريزة وتظهر على ذلك الشخص الآثار الدالـة على وجود الغريزة او يظهر عليه رجع تلك الغريزة وهـو الخوف والكراهية لهذا الحيوان الذى يريد ان يفترسه. . : او ان يتخيل الشخص ان شيئاً ما يهدد بقاء حياته فتظهر عليه علامات الخوف ايضاً ولكن يستطيع ذلك الشخص ان يصرف عنه هذا الوهم وعندها تسكن الغريزة بدون اشباع لها . ومثل ذلك غريزة بقاء النوع فان من

مظاهرها الميل الجنسى ، وهذا الميل لا يحدث الا اذا وجد فى الخارج ما يثيره كأن يرى الانسان امرأة مثيرة لهذا الميل أو ان يتخيل فى ذهنه صورة امرأة مثيرة لهذا الميل . . . ثم انه باستطاعته ان يصرف نظره عن المرأة او ان يصرف تخيله عنها وعندها تهدأ الغريزة بدون ان يحصل لها اشباع .

ثالثاً : ان الحاجات العضوية لا يمكن اشباع حاجة على حساب حاجة اخرى ، فالحاجة الى الطعام لا تشبع الا بالطعام والحاجة الى الشراب لا تشبع الا بالشراب والحاجة الى النوم لا تشبع الا بالنوم . . . فلا تشبع الحاجة الى الطعام بالشراب مثلا ولا تشبع الحاجة الى النوم بالطعام . وهكذا . اما الغرائز فانه يمكن اشباع غريزة على حساب غريزة اخرى . فمثلا : الام التى تخاطر بحياتها من أجل انقاذ طفلها من الهلاك فهى قد اشبعت غريزة بقاء النوع عندها على حساب غريزة حب البقاء . وهكذا الشان فى جميع الغرائز .

(طريقة اشباع الحاجات العضوية واشباع الغرائز)

تختلف طريقة اشباع الغرائز والحاجات العضوية عند الطير والحيوان . . . عن الطريقة التى يشبع بها الانسان حاجاته وغرائزه ، فالطير والحيوان . . . عند ما تشبع جوعاتها بالاشياء فانما يتم هذا الاشباع عندها عن طريق الاحساس الغريزى ، بمعنى انها تشبع بما فطرت على الاشباع به وتمتنع عن الاشباع بما منعت من الاشباع به فطرياً .

فالطير والحيونات . . . آكلة اللحوم فقط فانها لا تشبع جوعاتها الا باللحوم ولا يمكن ان تشبع جوعاتها بالنبات ، والطير والحيوانات

. . . آكلة النباتات فقط فانها لا تشبع جوعاتها الا بالنباتات ولا يمكن ان تشبع جوعاتها باللحوم .

ثم ان الطير والحيوان . . . عند ما تقوم باشباع جوعاتها بالاشياء فانها لا تجرى على تلك الاشياء تجاربها او ان تتذوقها لتعرف ما يلائم ذوقها . . . وانما يتم ذلك عن طريق الاحساس الغريزى فهى تشبع بما فطرت على الاشباع بـه غريزياً وتمتنع عما منعت من الاشباع به غريزياً . فهى عند ما تشبع غرائزها فانها تقوم بالاشباع غريزياً وتتوقف عنه غريزياً .

فمثلا : عند ما تتطلب غريزة بقاء النوع اشباعاً عند كل من الطير والحيوان . . . فان هذه الغريزة تدفع بذكور واناث هذا النوع ليقوم بعملية الاشباع وبناءاً على هذا الدافع الغريزى يقوم كل من ذكور واناث هذا النوع بعملية الاشباع . وعند ما يتم الأمر الذى من اجله وجدت هذه الغريزة/وهو اللقاح/يمتنع كل من ذكور واناث هذا النوع عن القيام بعملية الاشباع ، وكل ذلك يتم عندها عن طريق الاحساس الغريزى .

فمثلا : الحمامة التى لها صغار فان غريزة بقاء النوع تدفعها لتقوم بجلب الغذاء لصغارها فتذهب الحمامة وتأتى بالغذاء ثم تضعه فى حلوق صغارها ، فاذا ما تمت الغاية التى من اجلها وجدت الغريزة عند الحمامة ــ وهو استغناء الصغار عنها ــ امتنعت هذه الحمامة عن جلب الغذاء الى صغارها . ولربما حاولت ان تأخذ الغذاء من امامهم مؤثرة نفسها عليهم بينما كانت بالامس القريب تؤثرهم على نفسها .

فهذه الحمامة عند ما قامت بجلب الغذاء لصغارها فانما كان ذلك حسب الاحساس الغريزى عندها . وعند ما امتنعت عن جلب الغذاء لهم فانه انما كان ذلك حسب الاحساس الغريزى عندها ايضاً .

وهكذا الحال بالنسبة لا شباعات الحاجات العضوية والغرائز عند غير الانسان كالطير والحيوان . . . . اما الانسان فانه انما يقوم بعملية اشباع جوعاته بالاشياء حسب مفاهيمه عنها او حسب مفاهيمه عن الحياة المتعلقة بهذه الاشياء . فالاشباع عنده انما يتم حسب المفاهيم التى عنده عن هذه الاشياء او حسب المفاهيم التى يحملها عن هذه الحياة . فاشباعات الانسان ليست مرتبطة باحساسه الغريزى كما هو الشأن عند الطير والحيوان وانما هو اشباع مرتبط بما عنده من معلومات ومفاهيم عنها سواء أكانت المعلومات والمفاهيم هى معلومات ومفاهيم عن ذات الشيء ما هو او انها كانت معلومات ومفاهيم عن كيفية علاقته بهذا الشيء عندما يريد الاشباع به . غير ان الاشباع الذى يتم حسب المفاهيم عن الاشياء يختلف عن الاشباع الذى يتم حسب المفاهيم عن الحياة .

فالاشباع حسب المفاهيم عن الاشياء يستطيع الانسان نفسه ان يتوصل الى هذه المفاهيم التى يشبع جوعاته بحسبها . كما ان الاشباع حسب المفاهيم عن الاشياء لا يختلف من شخص لآخر الا بمقدار ما عند كل شخص منهم من الرغبة فى ذلك الشيء او الرغبة عنه . اما ادراك ذلك الشيء ما هو وما طعمه وما خواصه وما ميزاته . . . فانه لا اختلاف فيه بين انسان وانسان آخر . وذلك لان مفاهيم جميع الناس عن الاشياء انما هى واحدة لا اختلاف فيها عند هم . واما الاشباع

الذى يتم حسب المفاهيم عن الحياة فان الانسان لا يستطيع ان يتوصل الى تلك المفاهيم بنفسه . كما ان مثل هذا الاشباع يختلف من شخص لآخر ، وهـذا الاختلاف يكون بحسب الفكر الأساسى عن الحياة عند كل انسان .

فالمسلم يحمل فكراً اساسياً عن الحياة بانها مخلوقة لخالق ــ وهو الله تعالى ــ وعلى هـذا الادراك فان مفاهيمه عن الحياة تفرض عليه ان يتقيد بأو امر الله ونواهيه عند ما يريد ان يشبع جوعاته . وهكذا نجد المسلم يشبع جوعاته بما اباح الله له الاشباع به ويمتنع عن الاشباع بما حرم الله عليه الاشباع به .

اما الرأسمالى فان مفاهيمه عن الحياة ــ تختلف عن مفاهيم المسلم . فالرأسمالى وان كان يعترف ضمنا بوجود الخالق ــ وهو الله تعالى ــ الا ان مفاهيمه عن الحياة قائمة على فصل الدين عن الحياة ، بمعنى انه وان كان يعترف بوجود خالق الا انه يعتقد انه لا علاقة للخالق فى تنظيم شؤون خلقه . فالخلق هم الذين ينظمون شؤون حياتهم كما يشاؤن وهم الذين يحللون وهم الذين يحرمون . وهـذا التحليل والتحريم يكون عند هم على شكل قانون يلزم الأفراد التقيد به .

وعلى هذا فان الشخص الرأسمالى عند ما يريد أن يشبع جوعاته حسب مفاهيمه عن الحياة فانه انما يشبعها بما اباح له القانون الاشباع به ويمتنع عن الاشباع بما منعه القانون من الاشباع به .

واما الشخص الاشتراكى الشيوعى فان مفاهيمه عن الحياة تختلف عن مفاهيم كل من المسلم والرأسمالى فهو يعتقد ان المادة ازلية

وانها مستغنية بنفسها . فهي غير محتاجة الى خالق ولهذا فانه ينكر وجود الخالق ــ لا اله والحياة مادة عنده ــ وهو يفسر حركة المادة وانتقالها على انها بسبب وجود المتناقضات فيها وعلى هذا فان النظام عنده يجرى حسب هذا التناقض وحسب وسائل الانتاج . والذى يقرر النظام ويطبقه انما هو الحزب الحاكم . وعلى هذا فان ما اقره النظام او اقره الحزب الحاكم من الاشياء للاشباع اشبع به الشخص الاشتراكي الشيوعى جوعاته وما منع الحزب الحاكم الاشباع به من الاشياء امتنع ذلك الشخص عن الاشباع به .

وهكذا فاننا نجد ان المفاهيم عن الحياة تختلف باختلاف الفكر الأساسى الذى يحمله الاشخاص وان كل شخص عند ما يريد ان يتعامل مع الاشياء لاشباع جوعاته بها فانما يتعامل معها حسب مفاهيمه هو عن الحياة المتعلقة بهذه الاشياء التى يريد ان يشبع بها جوعاته . غير ان المدقق فى واقع هذا الامر يجد ان المفاهيم الصحيحة عن الحياة لا يمكن ان تكون من وضع الانسان نفسه وذلك لأنها مفاهيم من خارج نطاق المجال الفكرى عنده فهى مفاهيم غيبية .

فكان لابد من ان تكون هذه المفاهيم ممن يعلم الغيب وهو الله تعالى . فاذا لم تكن من عند الله فإنها تكون مفاهيم خاطئة عن الحياة .

هذا بالنسبه للاشباع المتعلق بفاهيم الحياة اما الاشباع المتعلق بالمفاهيم عن الاشياء فانه لا اختلاف فيها بين الناس الا بمقدار اختلاف اذواقهم لها ورغباتهم فيها . كما ان التوصل الى المفاهيم

عن الاشياء هو من مقدور الانسان لان هذه المفاهيم واقعة ضمن المجال الفكرى عنده . فكل انسان عند ما يريد ان يشبع جوعاته بالاشياء فانه انما يشبع بها حسب مفاهيمه عنها وهذه المفاهيم اما ان يأخذها عن غيره ممن توصل اليها ، واما ان يتوصل هو اليها بنفسه عن طريق الملاحظة والتجربة والنتائج . فاذا ما اراد أى انسان ان يشبع جوعاته بشيء ما . مثلا : فانه يجرى عليه تجاربه فاذا وجد أنه مشبع ومستساغ وغير ضار اشبع به ثم تتكون عنده معلومات عنه حسب ما توصل اليها. واما اذا وجده غير مشبع او غير مستساغ او وجده ضاراً فانه يمتنع عن الاشباع به ثم تتكون عنده معلومات عنه حسب ما توصل اليها. وهكذا، وكذلك الشأن بالنسبه الاشباع الغرائز فعند ما يريد الانسان ان يشبع غريزة من غرائزه فانه انما يشبعها بحسب مفاهيمه بخلاف الطير والحيوان . . . . فانها انما تشبع غرائزها بحسب احساسها الغريزى . ثم ان دائرة الغرائز عند الانسان هى اوسع من دائرة الغرائز عند كل من الطير والحيوان .

فالطير والحيوان يتوقف الدافع الغريزى عندها عند ما تتم الغاية التى من اجلها وجدت الغريزة، فمثلا : تتم الغاية من الدافع الغريزى لغريزة بقاء النوع عند كل من الطير والحيوان . . . عند استغناء الصغار عن امهاتها فاذا ما استغنى الصغار عن امهاتها توقف الدافع الغريزى عند الامهات تجاه صغارها فتتوقف عن جلب الغذاء لهم ويتم كل ذلك غريزياً عندها . واما الغاية من هذه الغريزة عند الانسان فانها تمتد الى ما بعد استغناء الصغار .

فغريزة بقاء النوع عند الانسان تمتد من حب الاولاد وحب

الاقارب وحب الأسرة الى حب النوع البشرى وحب بقائه كنوع والمحافظه عليه من الانقراض .

ولهذا فاننا نجد ان الدافع لاشباع هذه الغريزة عند الانسان يستمر الى ما بعد استغناء الصغار عن آبائهم وامهاتهم وذلك لان الانسان اجتماعى بالطبع فهو يعيش مع جماعات فى مجتمعات وعيشه هذا يخدم غريزة حب البقاء عنده كما يخدم غريزة بقاء النوع ايضاً . فعيشه مع زوجته واولاده واقاربه وحبه لهم وحبهم له يخدم غريزة بقاء النوع . وعيشه ضمن مجتمع يدفع عنه عاديات الاعادى يخدم غريزة حب البقاء عنده .

وهكذا فاننا نجد ان دائرة الغرائز عند الانسان هى اوسع من دائرة الغرائز عند كل من الطير والحيوان .

﴿الانسان آية بنفسه على وجود خالقه﴾

ان الناظر الى واقع ما عليه الانسان وماركب فيه من غرائز وحاجات عضوية وما اعطى من خيارات ضمن الدائرة الارادية وما فرض عليه من قيود ضمن الدائرة القسرية . ليجزم بان وراء وجوده موجداً او جده وعلى قدر معين قدر فيه ما قدر وخيره فيما خير وسيره فيما سير وحددله الدائرة الاختيارية بحدود وقيده ضمن الدائرة القسرية بقيود . . لو اراد الانسان الخروج على هذه الحدود ومن تلك القيود لما استطاع الى ذلك سبيلا . فواقع الانسان أنه يعيش فى هذه الحياة ضمن دائرتين وهما .

○ ـ الدائرة القسرية .

○ ـ الدائرة الاختيارية .

فالانسان يسير فى هذه الحياة ضمن الدائرة القسرية سيراً جبرياً ليس له فيها أى خيار . وهذه الدائرة تقسم الى قسمين اثنين .

اما القسم الأول فهو ما يقتضيه نظام الوجود مثل اطوار خلقه وتطور نشأته وطول قامته ولونه ووجوده فى هذه الحياة وانتهاء وجوده منها .

واما القسم الثانى فهو ليس مما يقتضيه نظام الوجود ولكنه فى حكم ما يقتضيه هذا النظام. ويشمل هذا القسم جميع الاعمال التى تقع من الانسان او عليه بدون ارادة منه . مثل ان يسقط شخص من مكان عال على شخص آخر فيقتله او يسبب له ضرراً ما ، ومثل ان تسقط طائرة بركابها فيسبب لهم هذا السقوط موتاً او ضرراً ولم يكن هناك أى تقصير من أى انسان .

ومثل ان يطلق الانسان رمية على طريدة فيصيب إنسانا لم يكن قدرآه ولم يكن يريد اصابته . فهذه الاعمال كلها ليس للانسان فيها أى ارادة ، فهى تدخل فى الدائرة القسرية التى يسير الانسان بحسبها مجبراً ، وهذه الدائرة بقسميها تسيطر على الانسان سيطرة تامة ولا يستطيع الا ان يسير بحسبها ، فهو قد استقر فى رحم امه نطفة ثم تحولت النطفة الى علقة ثم تحولت العلقة الى مضغة ثم تحولت المضغة الى عظام ثم كسيت هذه العظام لحماً ثم ولد طفلا صغيراً ضعيفاً ثم صار شاباً يافعاً قوياً ثم صار شيخاً هرماً ضعيفاً . . . وهو فى جميع هذه الاطوار من خلقه انما يسير حسب نظام فرض عليه السير بحسبه وليس له او لاحد ابويه او لاحد من الناس أى دخل او ارادة فى هذا النظام . والانسان يخضع لهذا النظام خضوعاً تاماً فلا

يستطيع التخلف عنه او الخروج عليه . قال تعالى : «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين .»

وقال تعالى : «هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا اجلا مسمى ولعلكم تعقلون .»

وقال تعالى : «يا ايها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام مانشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً .»

هذه هى الدائرة القسرية التى يسير الانسان ضمنها سيراً جبرياً وقد اسند الله تعالى جميع الاعمال التى تقع فى هذه الدائرة إليه ولم يسند اى فعل من افعالها الى الانسان . كما ان الانسان ليس محاسباً عن اعمال هذه الدائرة الا بمقدار قيمة ما يتلفه المخطىء بخطئه وهو حكم شرعى قد فرضه الله تعالى على عباده .

واما الدائرة الاختيارية فهى الدائرة التى اعطى الله الانسان فيها الارادة والاختيار لما يقوم به من اعمال . وضمن هذه الدائرة تقع التكاليف الشرعية التى كلف الله الانسان القيام بها . والانسان محاسب على اعماله التى تقع فى هذه الدائرة ان خيراً فخير وان شراً فشر :

قال تعالى : «ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها .»

وقال تعالى : «انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً .»

فالانسان يستطيع ان يتحرك الحركة الارادية ضمن هذه الدائرة متى شاء ، ويستطيع ان يتوقف عنها ان اراد، ويستطيع ان يتكلم الكلام الارادى متى يريد ، ويستطيع الامساك عنه متى شاء،ويستطيع أن ينظر الى الاشياء ان احب النظر اليها ويستطيع ان يصرف نظره عنها ان رغب عنها ويستطيع ان يقوم بالاعمال التعبدية التى فرضت عليه ويستطيع ان يترك القيام بها . . . غير ان هذه الدائرة وان كان الانسان قد اعطى الارادة والاختيار فيها الا انها دائرة محدوده . لها حدود ينتهى عندها ذلك الاختيار، وتلك الارادة ، فالانسان وان كان يستطيع ان يتحرك الحركة الارادية كما يشاء الا انها حركة فى حدود الدائرة فلا يستطيع مثلا ان يطير بجسمه فى الهواء ولا ان يسير بقدميه على سطح الماء . كما انه لا يستطيع ان يرى ما هو خارج حدود دائرة الرؤيا عنده، فلا يستطيع أن يرى الاجسام الشفافة كالهواء ولا الاجسام الدقيقة كالجراثيم . وهو لا يستطيع ان يسمع ما هو خارج حدود سمعه ولا يستطيع ان يحمل أو أن يتحمل ما هو فوق حدود قدرته وطاقته .

وهكذا فاننا نجد ان الدائرة الاختيارية التى منحها الله الانسان هى دائرة محدودة وليست مطلقة . غير ان مجال محدودية هذه الدائرة هو اوسع من مجال حدود التكاليف الشرعية التى كلف الله بها الانسان اذ ان جميع ما كلف به الانسان من عمل فانه يقع ضمن هذه

الدائرة الاختيارية، وفى هذه الدائرة يستطيع الانسان ان يقوم بالتكاليف الشرعية ويستطيع ان يمتنع عن القيام بها .

قال تعالى : «لا يكلف الله نفساً الاوسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .»

﴿الانسان والقدر﴾

قد يقال ان الانسان خاضع للقدر فكيف يكون عنده خيار وارادة مع خضوعه لهذا القدر ؟. نعم ان الانسان بل ان جميع المخلوقات خاضعة لما قدر عليها . وهى لا تستطيع ان تخرج عن هذا القدر الذى قد قدر عليها . . . غير ان أدراكنا لما قدر على المخلوقات لا يمكن ان تكون له حقيقة الا اذا ادركنا الواقع الذى عليه المخلوقات. اذ ان المخلوقات هى الآثار الدالة على القدر الذى قدر عليها . وعند امعاننا النظر فى واقع ما عليه المخلوقات نجد ان القدر عليها من حيث الوجود إنما هو قدر واحد بين جميع المخلوقات ، فهذه المخلوقات قد قدر عليها الوجود فوجدت بذلك القدر اذ انه لو لم يقدر عليها الوجود لما وجدت ، فالخالق قدر عليها الوجود فوجدت هذه الاشياء المخلوقة .

قال تعالى : «انا كل شيء خلقناه بقدر وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر .»

وقال تعالى : «انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون .»

وقال تعالى : «انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .»

غير ان الناظر الى هـذا القدر يجد انه قدر خاص بوجود الخلق فهو من هـذا الباب قـدر واحـد لا يختلف بين موجود من الخلق وبين موجود آخر منهم . . . اما القدر الذى فرض على الخلق من حيث الكيفية التى يجب ان يكون عليها . فانه قدر يختلف باختلاف ما عليه المخلوقات ، واذا مـا اجملنا هـذا الاختلاف فـاننا نجد ما يلى .

١ ـ بعض المخلوقات قد قـدر عليها ان تكون على شكل لا حياة فيها ولا ارادة لها فكانت هذه المخلوقات كما قـدر عليها ان تكون عليه . وذلك مثل الجمادات ومثل الشمس والقمر والنجوم . . .

قـال تعالى : «ان ربكم الله الـذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بـأمره ألا لـه الخلق والامر تبارك الله رب العالمين .»

٢ ـ بعض المخلوقات قد قـدر عليها ان تكون عندها حياة ولكن ليس عندها اى نوع من الارادة فكانت هذه المخلوقات على الشكل الذى قد قدر عليها ان تكون عليه وذلك مثل النباتات . . .

قـال تعـالى : «إفـرأيتم مـا تحرثـون اءنتم تزرعـونـه ام نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون .»

وقال تعالى : « هـو الذى انزل من السماء مـاء لكم منه شراب ومنه شجر فيـه تسيمون ينبت لـكم بـه الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .»

٣ ـ وبعض المخلوقات قد قـدر عليها ان تكون عندها حياة ولها

حاجات عضوية ولها بعض الغرائز وعندها ارادة تتعلق باشباع هذه الحاجات العضوية وتلك الغرائز . . . ولكن ليس عندها فكر وليس عليها تكاليف شرعية . . . فكانت هذه المخلوقات كما قدر عليها ان تكون عليه وذلك مثل الطير والحيوان . . .

قال تعالى : «الم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لايات لقوم يؤمنون .»

وقال تعالى : «والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الا نفس ان ربكم لرؤف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين .»

٤ ـ لقد قدر الله على الانسان ان تكون عنده حياة وان تكون عنده غرائز وحاجات عضوية وان يكون عنده فكر وان تكون عنده ارادة واختيار فى الدائرة الاختيارية وان تكون الدائرة الاختيارية عنده اوسع من دائرة التكاليف الشرعية التى كلف بها . . . فكان الانسان على الشكل الذى قد قدر عليه ان يكون . وبعد ادراكنا لواقع القدر الذى قد قدر على كل مخلوق، فلا يحق لنا ان نقول بما يخالف هذا الواقع . فعند ما نرى ان الطائر يطير متى شاء ويحط متى اراد فلا يحق لنا ان نقول ان الطائر يطير مجبراً عند ما يطير ويحط مجبراً عند ما يحط . وذلك لان واقع القدر الذى قد قدر عليه هو انه يطير بارادته ويحط بارادته . وكما لا يحق لنا ان نخالف القدر فيما يتعلق بالطير مثلا فانه لا يحق لنا ان نخالف القدر الذى قد قدر

على الانسان، فواقع الانسان يدل على انه مقدر ان تكون عنده الارادة والاختيار فى الدائرة الاختيارية وان لا ارادة له ولاخيار فى الدائرة القسرية . . . فاذا اردنا ان يوافق قولنا القدر فاننا ننظر الى فعل الانسان فاذا كان من الدائرة الارادية الاختيارية حكمنا عليه انه انما فعل هذا الفعل بمحض ارادته واختياره اللذين منحهما الله له، واذا كان الفعل الذى وقع منه او عليه من الدائرة القسرية قلنا مقدر عليه ان يحصل منه او عليه ماحصل . وهذا القدر مدرك من واقع الانسان نفسه .

بالاضافه الى قوله تعالى : «ونفس وما سواها فألهمها فجوزها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها .»

وقد يقال : ان الانسان مكتوب عليه فى اللوح المحفوظ ازلا كل ما يقع منه او عليه من افعال واحداث . . .

وان كل ما يقع منه او عليه من افعال واحداث انما تكون بحسب ما كتب عليه فى اللوح المحفوظ . . . فكيف تكون عنده ارادة مع خضوعه التام لما قد كتب عليه ازلا فى اللوح المحفوظ ؟ .

نعم ان الانسان قد كتب عليه فى اللوح المحفوظ كل ما يقع منه او عليه من افعال وأحداث . . . بل لقد كتب فى اللوح المحفوظ كل ما هو كائن فى ملك الله وكل ما سيكون وكيف ومتى سيكون . وان الانسان لايقع منه او عليه من فعل او حدث الا كما كتب ازلا، وان ما يفعله الانسان لا يكون الا مطابقاً لما قد كتب عليه فى الازل . . . غير ان التقدير والعلم الازلى بما سيفعله الانسان او بما يقع منه او عليه من فعل او حدث او غير ذلك فان هذا كله لا علاقة له فى

بحث ارادة الانسان واختياره ولا دخل له فى فعل الانسان من حيث انه يفعل ما يفعله مختاراً او مجبراً اذ ان الدليل على ان الانسان له بعض الافعال الاختيارية وهى الافعال التى تقع فى الدائرة الاختيارية عنده انما هو واقع ما عليه الانسان نفسه . اما ما هو مكتوب على هذا الانسان ان يفعل او ان لا يفعل وان ما يقع منه من فعل لا يكون الا مطابقاً لما كتب عليه ازلا فان كل ذلك انما يدل على دقة علم العالم.

فالله تعالى قدر ازلا بما سيكون من خلقه وهذا التقدير بناء على علمه هو . فالله تعالى يعلم كل ما سيكون فى كونه من خلقه ويعلم كيف يكون ذلك الخلق ومتى سيكون «الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» . ولكن علم الله بما سيكون من الخلق وبما سيكون عليه ذلك الخلق لا يدل على انه قد أجبر الخلق على ان يكونوا على الهيئة التى علم انهم سيكونون عليها ، ومطابقة ما يقع من الخلق لما علم الله انه سيقع منهم لا يدل على ان الله خلقهم مجبرين . فكونهم مخيرين او مجبرين فهذا يدل عليه واقعهم الذى خلقوا عليه، اما العلم بما سيقع ومطابقة ما يقع لما علم فان هذا كله انما يدل على دقة علم العالم وإحاطته بالخلق وبما سيقع منهم . وهذا العلم هو صفة للعالم وليس صفة للمعلوم، فالله تعالى يعلم ان آدم سيأكل من الشجرة التى نهاه عن الاكل منها من قبل ان يخلق آدم نفسه . قال تعالى : «واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة .» وعند ما اكل آدم من الشجرة لم يكن اكله منها بحسب الدائرة القسرية وانما اكل منها حسب ارادته واختياره . فقد اغراه ابليس بالخلود فى الجنة ان هو اكل منها .

بل لقد اقسم له انه ناصح له وانه انما يريد مصلحته وخلوده فى هذه الجنة وبناء على هذا الاغراء وذلك القسم اكل آدم من الشجرة مختاراً وبمحض الارادة التى منحه الله اياها .

قال تعالى : «واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فقلنا يا آدم ان هـذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمؤا فيها ولا تضحى فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فاكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو .»

وقال تعالى : «ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين .»

فهنا قـد اسند الله تعالى فعل آدم لآدم نفسه — فأكلا منها . . . فعصى آدم ربـه فغوى . . . ولم ينسب الله ماحصل من آدم الى علمه بما سيحصل ولم يذكر ان علمه هو الذى اجبر آدم على الاكل من الشجرة . . .

وبهـذا يظهر لنا ان العلم انما هو صفة للعالم ولا علاقة لـه بما يفعله الانسان من حيث الجبر والاختيار، فمثلا، الشخص العالم بصفات البارود وميزاتـه قد يرى طفلا يشعل النار بقرب برميل من

البارود مفتوح وبناءاً على ما عنده من علم بخصائص البارود يقدر انه سيحصل انفجار هائل وان قوته التدميرية ستكون كذا، ثم يحصل عين ما قد قدره العالم، ومع هذا كله فلا يقول عاقل ان العالم بخصائص البارود هو الذى اجبر الطفل على فعله وأن ماحصل انما كان بسبب علم ذلك الشخص الذى علم وقدر فكان ان حصل عين ما علم وقدر، بل يقول العقلاء ان الانفجار قد حصل بفعل ذلك الطفل وان الشخص الذى علم بما سيحصل لا علاقة له بذلك الفعل الذى حصل الا علاقة العلم به فقط، وهكذا . فكلما كان العلم دقيقا كان الحكم على المعلوم من جنس ذلك العلم، فمثلا المدرس الذى يقدر ان عشرة طلاب من طلابه سيرسبون فى الامتحان، فاذا رسب منهم تسعة فان علم ذلك المدرس يكون دقيقاً، اما اذا رسب العشرة الذين عينهم وعين مقدار تحصيلهم من الدرجات فان مثل هذا العلم يكون ادق من سابقه . وهذا كله فى حدود علم الانسان المحدود فكيف بعلم الله المحيط ؟ ! .

فان ما علم بالعلم المحيط فانه لا يكون الا كما علم ولا يكون الا على الكيفية التى علم انه سيكون عليها ومع ذلك كله فان علم العالم لا يجبر العامل على الفعل او على الترك .

وبهذا يظهر لنا ان الانسان لم يكن مجبراً على القيام بالاعمال الارادية وان ما كتب عليه ازلا ليس له علاقة فى بحث الجبر والاختيار وانما علاقته بعلم الله المحيط وعلم الله صفة له . وكون الله عالم بما سيكون فى ملكه لا يدلنا على ان الانسان مجبر أو مخير فاذا اردنا ان ندرك ان الانسان مجبر او مخير فعلينا ان ندرس واقع

الانسان نفسه . وواقع الانسان يدلنا على ان ما يفعله فى الدائرة الاختيارية انما يفعله عن ارادة واختيار، وان هذه الارادة والاختيار قد قدرها الله فيه ؛ وان ما يحصل من مطابقة ما يفعله الانسان فى الدائرة الاختيارية لما هو معلوم لله تعالى وما هو مكتوب ازلا فى اللوح المحفوظ فانما يدل على احاطة علم الله وشموله . والخلاص .

١ ـ إنه لا يوجد شئ فى الوجود الا بقدر الله تعالى . قال تعالى : «انا كل شئ خلقناه بقدر .»

٢ـ ان القدر المقدر على الكائنات انما يدرك من ادراك الواقع الذى عليه هذه الكائنات .

وذلك لان هذه الكائنات قد وجدت بحسب ما قد قدر عليها فكان الواقع الذى هى عليه دليلا على ما قد قدر عليها . . .

٣ ـ ان علم الله هو صفة له وان علم العالم بما سيحصل لا يلزم منه ان يكون سببا لماحصل وان مطابقة ماحصل وموافقته لعلم العالم انما يدل على دقة علم هذا العالم بما سيحصل فقط .

ـ الانسان وعقدته الكبرى ـ

ان عقدة الانسان الكبرى هى معرفة وجوده فى هذه الحياة ضمن هذا الكون الواسع .

وتتمثل هذه العقدة بالاسئلة التى تطرحها غريزة التدين عند الانسان ثم تلح عليه فى طلب الاجابة عليها اجابة صحيحة تشبع هذه الغريزة اشباعاً تاماً . والاسئلة التى تفرضها هذه الغريزة عند الانسان هى، من أنا ؟ ومن اين اتيت إلى هذه الحياة ؟ ومن جاءبى الى هذه

الحياة ؟! وما الغاية من وجودى فى هـذه الحياة ؟! وماذا بعد هـذه الحياة ؟!! وهل هناك علاقة لهذه الحياة بما بعدها ؟! وما هى هذه العلاقة ؟. هـذه هى الاسئلة التى تطرحها على الانسان غريزة التدين عنده ، وتطلب منه الاجابة عليها اجابة صحيحة . ولما كانت الكيفية التى يشبع بها الانسان غرائزه مرتبطة بفاهيمه عن الاشياء وعن الحياة فانه يعمل فكره للتوصل الى حل هـذه التساؤلات حلا يشبع غريزة حب التقديس او غريزة التدين عنده . وقـد اختلفت اجابات الناس على هذه التساؤلات حسب اختلاف نوع الفكر الـذى عالجوا به هذه العقدة .

○ ـ فمنهم من حاول ان يحلها عن طريق الفكر السطحى فنظر الى آبائه فوجدهم يعبدون شيئاً ما فعبد هو ذلك الشىء دون أن يحمل نفسه عناء البحث فيما يعبد .

قال تعالى : «واُتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد اصناماً فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم او يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كـذلك يفعلون .

○ ـ ومنهم من حاول ان يحلها عن طريق الفكر العميق فاخـذ يبحث عن مصادر القوة والنفع وهما مما يجب ان يتوفرا فيما يعبد . فنظر بعضهم الى الشمس فوجد ان فيها نفعاً للحياة وللاحياء فاخذ يعبدها .

قال تعالى : «فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين انى وجدت امرأة تملكهم واوتيت من

كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون .»

ومن هـؤلاء من نظر الى النار فوجد فيها القوة الهائلة فاخذ يعبدها . . .

○ - ومنهم من حاول ان يحلها عن طريق الفكر المستنير فتوصل الى ان هـذا الكون بما فيـه من انسان وطير وحيوان ونبات . . . انما هو خلق لله تعالى. ولكن هؤلاء قد وقعوا فى الضلال عندما حاولوا ان يحددوا علاقتهم مع الخالق عن طريق العقل فجعلوا له شركاء او وسطاء لتقربهم منه .

قال تعالى : «ولان سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون .»

وقال تعالى : «ولان سألتهم من نزل من السماء ماءاً فاحيا به الارض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون .»

وقال تعالى : «قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل افلا تتقون .»

وقال تعالى : «ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هـؤلاء شفعاؤنا عنـد الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون .»

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو .

هل يستطيع الانسان ان يحل هذه العقدة عن طريق الفكر مهما كان نوع هذا الفكر ؟!!

. أم أنه بحاجة الى الرسل ليساعدوه على حل هذه العقدة عن طريق ما يوحيه الله لهم ؟!!

(حاجة الانسان الى الرسل)

ان الناظر الى الاسئلة التى تطرحها غريزة التدين عند الانسان من اجل حل العقدة الكبرى عنده يجد انها اسئلة ذات شقين (١) شق له علاقة بالواقع او بالآثار الدال على واقع ما . (٢) شق غيبى لا يقع عليه حس الانسان . فاما اسئله الشق الأول والتى لها علاقه بالواقع فان الانسان يستطيع ان يجيب عليها اجابة صحيحة اذا هو فكر فيها تفكيراً سليما . فالانسان يدرك انه مخلوق لخالق ويدرك انه ليس ازلى الوجود ويدرك انه لو لم يكن له خالق لما خلق ،ويدرك ان له علاقة بمن خلقه وهى العلاقة الخالقية .

وبهذا يكون الانسان قد اجاب على بعض ما تفرضه غريزة التدين عنده من اسئلة ولكنه لا يستطيع ان يجيب على اسئلة الشق الثانى لانه لا يدرك الغاية من وجوده فى هذه الحياة ولا يستطيع ان يحدد من وراء وجوده ولا يستطيع ان يدرك ماذا بعد هذه الحياة ولا يستطيع ان يدرك فيما اذا كان هناك علاقة لهذه الحياة بما بعدها ولا يستطيع ان يدرك نوع علاقة الحياة بما بعدها،وذلك لان هذه الامور ليست من مجال الفكر عنده وانما هى امور غيبية فهى تحتاج الى معلومات من عالم الغيب حتى تحل حسب هذه المعلومات . ومن هنا جاءت حاجة الانسان الى الرسل ليحلوا له بقية الاسئلة والتى وقف العقل عاجزاً عن الاجابة عليها اجابة صحيحة ، فمن مهمة الرسل ما يلى .

① ـ يهدون الانسان الى معرفة خالقه باسمائه وصفاته .

٢ - يبينون للانسان علاقة هـذه الحياة بما قبلها وهى بالاضافة الى علاقة الخالقية التى ادركها العقل عند الانسان، هى علاقة التقيد بأوامر الله ونواهيه .

٣ - يبينون للانسان الغاية من وجوده فى هـذه الحياة . قال تعالى : «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون .»

٤ - يبينون للانسان ان بعد هذه الحياة حياة آخرة وهى دار الخلد يسعد فيها من سعد ويشقى فيها من شقى .

٥ - يبينون للانسان علاقة هـذه الحياة بما بعدها وهى علاقة حساب فما يعمله الانسان فى هذه الحياة يحاسب عليه فى الحياة الآخرة قال تعالى : يومئذ يصدر الناس اشتاتاً ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .» وان من فاز فى الدار الآخرة فإلى الجنة .

قال تعالى : «كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز .»

وبهذا تكون عقدة الانسان الكبرى قدحلت حلا تاماً يشبع غريزة التدين عنده . فهو قد ادرك انه مخلوق لخالق ثم علم عن طريق الرسل من هو الخالق وعلم الغاية من وجوده فى هذه الحياة وعلم علاقة هذه الحياة بما قبلها وعلم ماذا بعد هذه الحياة وعلم علاقة هذه الحياة بما بعدها . . .

وبعد ان تحل العقدة الكبرى عند الانسان فان جميع عقده ستحل تبعاً لحل هذه العقدة الكبرى ، وذلك لان جميع العقد الاخرى

اما ان تكون جزءاً من العقدة الكبرى، واما ان تكون متفرعة عنها . فالحلال والحرام يدرك من ادراك علاقة هذهٔ الحياة بما قبلها. والتقيد بفعل الحلال وترك الحرام يدرك من ادراك علاقة هذه الحياة بما بعدها . وهكذا .

﴿الانسان وعلاقاته الاربع﴾

الانسان كائن اجتماعي بالطبع . تربطه علاقات بالناس الذين يعيش معهم في هذه الحياة .

وهو ذو حاجات عضوية وغرائز، تربطه علاقات بما يشبع به جوعاته من الاشياء وبما يشبع به غرائزه .

وهذه الحياة الاجتماعية وتلك الحاجات والغرائز تحتاج الى نظام ينظمها تنظيما يمنع فوضوية الاشباع او كبته، كما يمنع فوضوية العلاقات ، فاذا لم تنظم هذه الاشباعات بنظام يخدم الغاية التى وجدت من اجلها الحاجة او الغريزة فان ذلك يؤدي الى فوضوية الاشباع ويكون اما اشباعاً خاطئاً او اشباعاً شاذاً ولا يكون اشباعاً صحيحاً . اذ ان الاشباع الصحيح هو ما كان في محله وكان مأذوناً به شرعاً. واما الاشباع الخاطئ فهو ما كان في محله ولكن لم يؤذن به شرعاً ، واما الاشباع الشاذ فهو ما كان في غير محله ولم يؤذن به شرعاً .

فمثلا اشباع غريزة التدين عند الانسان يكون اشباعاً صحيحاً اذا كان عبادة لله فيما شرعه الله .

ويكون اشباعاً خاطئاً اذا كان عبادة لله في غير ما شرعه الله ، ويكون اشباعاً شاذاً اذا كان عبادة لغير الله .

وكذلك بالنسبة لاشباع غريزة بقاء النوع فانه يكون اشباعاً صحيحاً اذا كان عن طريق الزواج ، وذلك لان المرأة هى محل للانجاب وان الشارع قد أذن به، فالزواج يخدم الغاية التى من اجلها وجدت الغريزة وهى وجود النسل ، ويشبع الميل الجنسى عند كل من الرجل والمرأة ويربط بينهما برباط يتم بموجبه تكوين الاسرة والسهر على تربية النسل وتنشئته وينظم علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة المرأة بالرجل ويحدد ما يجب على كل واحد منهما من العمل والتى هى فى الاساس اعمال تنصب على خدمة الغاية التى وجدت الغريزة من اجلها . فالمرأة تكون بموجب عقد الزواج مسؤولة عن تربية الاولاد وصنع الغذاء . . . . والرجل يكون بموجب هذا العقد مسؤولاً عن رعاية الاسرة والانفاق عليها وتوفير الحماية والأمن لها، ولهذا كان اشباع غريزة بقاء النوع عن طريق الزواج اشباعاً صحيحاً . واما اشباع هذه الغريزة عن طريق الزنا فانه يكون اشباعاً خاطئا وذلك لان المرأة وان كانت محلا للانجاب الا ان هذا الاشباع لم يؤذن به شرعاً ثم انه لا يخدم الغاية التى وجدت الغريزة من اجلها اذ ان مثل هذا الاشباع لايتجاوز اشباع الميل الجنسى، واشباع الميل الجنسى هو جزء من الاشباع،اذ ان الاشباع التام انما هو الاشباع الذى يخدم الغاية التى وجدت الغريزة من اجلها، والغاية هنا هى ايجاد النسل وتنشئته وحفظه . ولهذا كان مثل هذا الاشباع اشباعاً خاطئاً .

واما الاشباع الشاذ لهذه الغريزة فهو اشباع الرجل للميل الجنسى فى غير المرأة او اشباع المرأة له فى غير الرجل اذ ان مثل هذا الاشباع لا يكون منه نسل فهو اذاً ليس فى محله وكذلك فانه لم

يؤذن به شرعاً ، وهو بالطبع لا يخدم الغاية التى وجدت الغريزة من اجلها وهى ايجاد النسل .

ولهذا كله كان لابد من وجود نظام ينظم هذا الاشباع تنظيماً يمنع كل من الاشباع الخاطىء والاشباع الشاذ ويجعله اشباعاً صحيحاً . وكان لابد من وجود نظام يحدد علاقات الانسان تحديداً يمنع الفوضى فى العلاقات كما يمنع الفوضى فى الاشباع .

واذا ما اجملنا علاقات الانسان فاننا نجد انها علاقات اربع لا غير وهى .

١ - علاقة الانسان بربه ومنشأها غريزة التدين عنده فهو يشعر بالعجز والاحتياج وهو يعلم انه مخلوق لخالق فتدفعه غريزة التدين للبحث عن القدرة التى وراء وجوده فى هذه الحياة لتساعده على محنه اثناء شدته ولتسد له هذا الاحتياج الذى يشعر به فاذا لم تنظم هذه العلاقة بنظام صحيح فان ذلك يؤدى الى عبادة غير الله — وهو اشباع شاذ — او انه يؤدى الى عبادة الله فى غير ما شرعه الله — وهو اشباع خاطىء — قال تعالى : «وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاءاً وتصدية» وقال تعالى : «ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى .»

٢ - علاقة الانسان بنفسه ومنشأها غريزة التدين عنده . فهذه الغريزة تدفع الانسان لمعرفة ما اذا كان هو حراً فى نفسه يعمل فيها ما يشاء ويتصرف باعضاء جسمه كما يريد . . . ام انه خاضع لسلطان خالقه فلا يحق له التصرف فى نفسه ولا فى اعضاء جسمه الا حسب ما يأذن له الخالق من التصرف بها وعلى الكيفية التى يسمح له بها .

كما انه مسؤول عن انقاذ نفسه من عذاب خالقه بسبب مخالفته لاوامره . . .

قال تعالى : «يا ايها الذين آمنو قوا انفسكم واهليكم ناراً .»

٣ ـ علاقة الانسان بالاشياء التى يشبع بها جوعاته ويحقق عن طريقها رغباته . . . ومنشأها غريزتى : حب البقاء وبقاء النوع . فعلاقته بالاشياء التى تخدم ذاته أو تساعد على اسعادها فان منشأها غريزة حب البقاء عنده، وعلاقته بالاشياء التى تخدم بقاء النوع أو تساعد على استمرار بقائه فان منشأها غريزة بقاء النوع عنده .

٤ ـ علاقة الانسان بالناس الذين يعيش معهم فى هذه الحياة . ومنشأها غريزتى حب البقاء وبقاء النوع عنده . فعيش الانسان مع زوجته واولاده وحبه لهم وحبهم له ورعايته لهم . . . فهذه العلاقة منشأها غريزة بقاء النوع. وعيشه مع افراد مجتمعه يدفعون عنه عاديات الاعادى فان منشأها غريزة حب البقاء عنده .

وهكذا فاننا نرى ان كل علاقات الانسان تحتاج الى نظام ينظمها تنظيماً يمنع من فوضوية العلاقات ويخدم الغاية التى من اجلها وجد الانسان نفسه .

تنظيم علاقات الانسان حق لمن ؟

الانسان كائن اجتماعى وهو ذو غرائز وحاجات عضوية فاذا لم تحدد علاقاته بالاشياء التى يشبع بها جوعاته وبالناس الذين يعيش معهم فى هذه الحياة فان الحياة تصبح عندها حياة فوضى واضطراب يأكل القوى فيها الضعيف ويستغل الذكى فيها الغبى ويستعبد الغنى فيها الفقير . . .

ولقد حدد الانسان لنفسه جميع علاقاته فى غيابة الرسل حتى انه لقد حدد علاقته مع خالقه فاتخذ بعض الاصنام كوسائط بينه وبين ذلك الخالق قال تعالى : «ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى .» بل لقد كان يقوم بحركات وطقوس ثم يعتبر هذه الحركات والطقوس عبادة للخالق . قال تعالى : «وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاءاً وتصدية .»

وهذا التنظيم لعلاقات الانسان من تلقاء نفسه فى غيابة الرسل لا يحاسبه الله عليه . قال تعالى : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .» ولكن بعد ان ارسل الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ للناس كافة وبعد ان حدد لهؤلاء الناس علاقاتهم ونظم لهم شؤون حياتهم بنظام من عنده ؛ وبين لهم الغاية من وجودهم فى هذه الحياة ، وبين لهم انهم سيسألون فى الحياة الآخرة عن اعمالهم التى عملوها فى هذه الحياة . . . فقد انتفى العذر عند بنى الانسان ، ولم يبق لهم حجة على الله يدافعون بها عن سبب اقدامهم على تنظيم شؤون خلق الله تعالى ، قال تعالى : «رسلا مبشرين ومنذرين لألا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً .»

وقال تعالى : «وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك .»

فالله تبارك وتعالى قد ارسل رسوله محمداً ﷺ للناس كافة فبين لهم الغاية من وجودهم فى هذه الحياة وهى عبادة الله وحده والتقيد بما جاء من عنده. وقد فرض عليهم عبادات وطلب منهم القيام بها بدون زيادة شئ عليها او نقصان شيء منها . وفسح لهم مجال العمل

بالمندوبات ليتسابق الناس الى عمل الخير من اجل أن يفوزوا برضوان الله فيدخلوا جنته .

وقد حدد علاقة الانسان بنفسه فحرم عليه الزنا والانتحار وحرم عليه اتلاف أى عضو من اعضاء جسمه الا اذا كان هذا الاتلاف قد اذن به الشارع من اجل حمايه بقية اعضاء الجسم . أو لأمر اجاز الشارع فيه اتلاف مثل ذلك العضو .

وحدد علاقات الناس بالأشياء التى يشبعون بها جوعاتهم وغرائزهم تحديداً يشبعها ولا يكبتها وينظمها ولا يطلقها .

وحدد علاقات الناس مع غيرهم . مالهم وما عليهم .

وبعد هذا التحديد من قبل الله لعلاقات خلقه فانه لا يجوز لأى انسان كائن من كان ان يقدم على تحديد علاقات الناس . واصبح أى تنظيم لعلاقات الناس من قبل أى انسان او أى مجموعة من الناس انما هو اعتداء على احقية الخالق فى تنظيم شؤون خلقه وان الله سيحاسب أولئك الذين يتعدون حدوده ولا يخضعون لما وضع الله لهم من نظم لهذه الحياة قال تعالى : «افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون .»

وبهذا يظهر لنا ما يلي :

١ ـ ان الله تعالى هو خالق الانسان وهو مالكه ، وانه هو خالق الاشياء وهو مالكها ، ومن حق الخالق وحده ان ينظم شؤون خلقه كما يشاء وكما يريد .

٢ ـ ان الله وحده الذى يعلم ما يسعد خلقه وما يشقيهم لان علمه علم محيط بكل شيء ولهذا فان النظام الذى يسعد الانسانية

هو ما كان من عند الله العليم ، قال تعالى : «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .»

٣ ـ ان الغاية من وجود الانسان فى هذه الحياة هى عبادة الله وحده وان هذه الدار هى دار اختبار للانسان ومن حق المختبر وحده ان يضع المادة التى يريد ان يختبر الانسان بها .

وقد وضع الله للانسان تلك المادة وهى او امره ونواهيه . وقد امر الانسان ان يتقيد بالاحكام الشرعية ونهاه عن ان يحكم بغير ما شرعه الله له وتوعد من حكم بغير ما شرعه الله بالعذاب .

قال تعالى : «وان احكم بينهم بما انزل الله اليك واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك .»

وقال تعالى : «قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك إتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه والعذاب الآخرة اشد وا بقى .»

٤ ـ الانسان معذور فى تنظيم علاقاته فى غيابة الرسل فلا يحاسب على اقدامه على هذا العمل. قال تعالى : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .»

٥ ـ بعد مبعث الرسول محمد ﷺ الى الناس كافة وبعد بيانه لهم ما شرعه الله من الاحكام والنظم فانه لا يجوز لأى انسان بعد ذلك ان يضع اى نظام لعلاقات الناس مهما كان نوعه . وان اى نظام غير نظام

الله يعتبر نظام كفر مهما كان نوعه او اسمه قال تعالى : ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون، وقال تعالى : «افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون .»

٦ ـ ان اى انسان او أى جماعة تقوم على تنظيم علاقات الخلق بعد مبعث الرسول محمد ﷺ يعتبر عملها هذا اعتداء على احقية الله فى تنظيم شؤون خلقه وان الله سيحاسب ذلك الانسان او تلك الجماعة يوم يأتيه وقد غاب عنه ماله وسلطانه،قال تعالى : «فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فاما من اوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه انى ظننت انى ملاق حسابيه فهوفى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما اسلفتم فى الايام الخالية، واما من اوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم اوت كتابيه ولم ادر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما اغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه .»

٧ ـ لا يكون عمل الانسان حسب الشريعة الاسلامية الا اذا تحقق فى ذلك العمل شروط ثلاثة . وهى .

١ ـ ان يكون العمل مقيداً بنفس ما جاء به الرسول بدون زياده شيء عليه او انقاص شيء منه .

٢ ـ ان يكون ما جاء به الرسول ثابت الاحكام غير منسوخ .

٣ ـ ان يؤخذ ما جاء به الرسول اخذاً تعبدياً فيطبق على انه شرع الله لعباده .

هذا هو الانسان الذى خلقه الله بيده والذى اسجد له ملائكته والذى نفخ فيه من روحه والذى جعله خليفة فى ارضه .

قال تعالى : «اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا ابليس استكبر وكان من الكافرين قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت ام كنت من العالين .»

وقال تعالى : «واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفه قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون .»

«المبادىء الثلاثة»

﴿تعريف المبدإ﴾

المبدأ هو : عقيدة عقلية اساسية ينبثق عنها نظام يعالج جميع مشاكل الحياة ويحدد علاقات الانسان. والعقيدة الاساسية هى الفكرة الكلية عن الكون والانسان والحياة وعما قبل هذه الحياة الدنيا وعما بعدها وعن علاقتها بما قبلها وبما بعدها .

والمبدأ يوجد عن طريقين اثنين فقط وهما .

١ ـ اما ان يشرق المبدأ فى ذهن شخص عبقرى فيعمل على ايجاده فى المجتمع عن طريق اقناع الناس به فاذا ما تقبله افراد المجتمع الذين يدعوهم اليه او تقبله أصحاب الفعالية فى المجتمع واعتنقوه عقيدة لهم وطبقوه على انفسهم وعلى مجتمعهم عندها يصبح لهذا المبدإ واقع فى معترك الحياة فيعمد حملته على أن يحملوه إلى العالم قاطبة على اعتبار انه هو المبدأ الصحيح للحياة .

٢ ـ واما ان يأتى عن طريق الوحى ، يوحى به الله الى خلقه عن طريق من اختارهم رسلا له من عباده فيعمل الرسول على ايجاد هذا المبدإ فى المجتمع عن طريق تبليغه لهم . فاذا آمن به افراد المجتمع او من بيدهم الفعالية فى المجتمع وطبقوه على انفسهم وعلى افراد مجتمعهم فقد صار لهذا المبدإ وجود فى الحياة فيعمل حملته على

حمله الى العالم على اعتبار أنه مبدأ من الخالق قد كلفهم ان يبلغوه الى جميع الخلق .

هذان هما الطريقان اللذ ان يمكن ان يتكون المبدأ بحسبهما . غير انه ليس كل مبدء يعتبر مبدءاً صحيحاً وانما يعتبر أنه مبدء فقط لانه قد اشتمل على العقيدة الأساسية وعلى النظام الذى يعالج مشاكل الحياة بغض النظر عن الصحة والبطلان وذلك لان بحث صحه المبدء وبطلانه انما تدرس وتدرك من خلال ادراكنا للطريق الذى اتى ذلك المبدا منه .

وعند الدراسة والتحليل نجد ان المبدأ الصحيح هو ما جاء عن طريق الوحى فقط وان ما عداه يكون مبدءاً باطلا وذلك للاسباب التالية .

١ - ان الفكر الانسانى محدود المجال فلا يستطيع العبقرى مهما اوتى من قوة الادراك ان يدرك جميع مشاكل الحياة قديمها وما يجد منها .

٢ - الفكر الانسانى عرضة للتفاوت والاختلاف والتناقض، وفكر هذا شأنه فانه انما ينتج مبدءاً من جنسه .

مبدأ فيه من الاختلاف والتفاوت والتناقض بقدر ما فى الفكر الذى نتج عنه من اختلاف وتفاوت وتناقض .

فاننا نرى فى الواقع البشرى انه قلما يتفق مفكر ومفكر آخر فى مثل هذه المواضيع . فقد يرى مفكر ان علاج الأمر الفلانى هو كذا فيأتى مفكر آخر فيرى خلافه . . . . وقد يرى المفكر ان العلاج

الذى وضعه لمعالجة مشكلة ما هو العلاج الصحيح ثم بعد فترة يرى هو نفسه ان المعالجة كانت معالجة خاطئة . كما ان الانسان يتأثر فكره وتفكيره بالبيئة التى يعيش فيها فيضع نظاماً متأثراً بما عليه المجتمع الذى هو فيه ولكن هذا النظام قد لا يتناسب مع ما عليه المجتمعات الأخر .

٣ ـ العبقرى هو فرد من افراد بنى الانسان فليس له الحق فى ان يجعل ما يراه دستوراً يلزم به جميع الناس لأن يحلوا مشاكل حياتهم بحسبه وأن يحددوا علاقاتهم بحسب ما يراه هو .

٤ ـ علم الانسان علم محدود فهو لا يعرف ما يسعد الانسانية وما يشقيها وما يحل لها وما يحرم عليها .

وبهذا يظهر ان المبدأ الذى يشرق فى ذهن عبقرى يكون مبدءاً غير صحيح ويكون المبدأ الصحيح هو ما جاء عن طريق الوحى لانه مبدأ من خالق الانسان ومالكه ومن خالق الاشياء ومالكها .

غير ان اثبات ان هناك مبدءاً قد أتى عن طريق الوحى يستلزم اثبات امور اربعة وهى .

١ ـ اثبات وجود خالق يصدر عنه الوحى الذى قد اتى بهذا المبدإ بالأدلة العقلية القاطعة/وهو الله /

٢ ـ اثبات ان الأمر الموحى به انما هو من عند الخالق قطعاً ـ /وهو القرآن الكريم /

٣ ـ اثبات ان من اوحى إليه انما هو رسول من عند الخالق قطعاً ـ وهو محمد رسول الله ـ

٤ ـ اثبات عصمة الرسول من الوقوع فى الخطإ فيما او حى إليه اثباتا قاطعاً . «وهى عصمة الرسل .»

فاذا اثبتت هذه الامور الاربعة بالأدلة العقلية القاطعة فقد ثبت ان هناك مبدءاً قد اتى به الوحى وثبت أن هذا المبدأ انما هو من عند الله قطعا بدون زيادة شئ عليه او انقاص شىء منه .

﴿ اثبات وجود الخالق ﴾

ان الامور والأشياء التى يقع عليها الحس والتى هى من مجال الفكر الانسانى انما هى ·

١ ـ الكون بما فيه من أجرام .
٢ ـ والانسان .
٣ ـ والحياة .

وهذه الاشياء الثلاثه وما يتعلق بها من امور يستطيع الفكر الانسانى ان يدرك واقعها وان يصدر حكمه عليها ما هى وذلك بحسب الواقع الذى هى عليه .

فاذا ثبت ان هذه الاشياء الثلاثة ازلية مستغنية بنفسها عن غيرها وكان هذا الثبوت ثبوتا قاطعاً ومطابقاً للواقع الذى هى عليه تمام المطابقة، ففى مثل هذه الحالة ينتفى وجود الخالق اذ ان وجوده متوقف على الأثر الدال عليه وهو وجود مخلوقاته فاذا انتفى وجود الأثر انتفى وجود المؤثر، اما اذا ثبت بالدليل العقلى القاطع ان هذه الأشياء الثلاثة غير ازلية وانها غير مستغنية بنفسها عن غيرها وانها محتاجة فى وجودها الى من اوجدها، فقد ثبت وجود الخالق قطعا، اذ

لو لا وجوده لما وجد هذا الخلق العظيم، فوجود الخلق دليل قاطع على وجود الخالق وذلك لان الخلق هو الأثر الدال على وجود الخالق . فاذا اردنا ان ندرك وجود الخالق فعلينا ان ندرس الكون والانسان والحياة دراسة تمكننا من الوقوف على حقيقة ما هي عليه ادراكا قاطعا ومطابقاً لواقع ما هي عليه تمام المطابقة .

﴿ الكون محدود وعاجز ومحتاج ﴾

ان الناظر الى هذا الكون يجد انه مكون من مجموعة اجرام كونية وعند التدقيق فى هذه الاجرام نجد انها اجرام محدودة وعاجزة ومحتاجة .

اما محدودية هذه الاجرام فانها ظاهرة فى امور كثيرة منها .

١ ـ ان لكل جرم حجم محدد ومدار محدد وسرعة محددة ومكان طلوع محدد ووقت طلوع محدد ومكان افول محدد ووقت افول محدد . . وهكذا، فهذه الاجرام محددة فى حجمها وفى مدارها وفى سرعتها وفى اماكن طلوعها وافولها وفى اوقات طلوعها وافولها .

ثم ان هذه الاجرام تسير حسب نظام دقيق، فاذا علمنا يقيناً ان النظام لا يمكن ان يصدر الا عن عالم مريد. واذا علمنا يقيناً ان هذه الاجرام لا علم عندها ولا ارادة لها . فقد علمنا يقيناً ان هذه المحدودية وهذا النظام انما هو من غير هذه الأجرام وانه قد فرض على هذه الاجرام السير بحسبه سيراً جبرياً وهى تخضع لهذا النظام خضوعاً تاماً .

واما عجز الكون فانه ظاهر فى امرين اثنين .

١ - ان اجرام الكون عاجزة عن تنظيم نفسها بنفسها لانها لا علم عندها ولا ارادة لها وهما مما يفرض العقل وجودهما فى كل منظم .

٢ - إن الاجرام الكونية تخضع لما فرض عليها من نظام خضوعاً تاما فلا تستطيع الخروج عليه او التخلف عنه .

وهذا مدرك من ادراك واقعها اذ لو ان باستطاعتها الخروج على هذا النظام لاستطاعت ان تسير بالسرعة التى تريد هى، ولاستطاعت ان تتوقف عن السير متى رغبت التوقف عنه، ولاستطاعت ان تغرب متى ارادت وانى شاءت. ولاستطاعت ان تطلع ان ارادت الطلوع وان تتخلف عن الطلوع ان هى رغبت عنه . . . وبهذا يظهر لنا عجزها عن الخروج على هذا النظام .

واما ثبوت احتياج هذه الأجرام فظاهر فى امرين اثنين .

الامر الأول : انه قد ثبت ان هذه الاجرام عاجزة عن تنظيم نفسها بنفسها فهى اذاً محتاجة الى من يضع لها نظاماً لتسير بحسبه اذ لو لا وجود النظام الذى تسير عليه لاحترقت بعض الاجرام بسبب قربها من الشمس ولتجمد بعضها بسبب بعده عنها ولتفتت بعضها بسبب تصادم بعضها مع بعض .

الامر الثانى : انه قد ثبت قطعا ان الاجرام الكونية غير مستغنية بنفسها، فهى اذاً غير ازلية، وبما انها قد وجدت بعد ان لم تكن موجودة فهذا يدل على انها محتاجة فى وجودها الى من او جدها من العدم، اذ لو لا وجود ذلك الموجد لها لما وجدت هى .

وبهذا يثبت لنا عن طريق الادلة العقلية القاطعة ان الكون محدود وعاجز ومحتاج .

وقد يقال كيف صح منا ان نحكم على جميع الأجرام الكونية بانها محدودة وعاجزة ومحتاجة مع اننا لم نستطع ان ندرك كل ما فى الكون من اجرام ؟!! وان ما يقع عليه حسنا من الأجرام الكونية انما هو قليل جدا بالنسبة الى ما فى الكون من اجرام ؟!!

والجواب على ذلك هو : ان الحكم على واقع ما عليه الشيء يختلف عن الحكم المتعلق بوصف خاص بذلك الشيء .

فالحكم على واقع ما عليه الشيء هو حكم على واقع ذلك الشيء وفى نفس الوقت هو حكم على واقع جميع افراد جنس ذلك الشيء .

وهذا الحكم لا يلزم منه الاحاطة بجميع افراد الجنس قبل الحكم عليه، بل يكفى ان ندرك بعض افراد ذلك الجنس فنحكم على الجنس ما واقعه من خلال ادراكنا لواقع ما عليه هؤلاء الأفراد .

اما الحكم المتعلق بوصف خاص بذلك الشيء فانه لا يجوز لنا الحكم عليه الا بعد ادراك ذلك الشيء الموصوف وادراك الآثار الدالة على وجود تلك الصفات الخاصة به .

فمثلا : عند ما نريد ان نحكم على واقع الانسان ما هو فاننا نقول : الانسان هو الكائن الحى المفكر الثابت الخلقة على صورة ظاهرة .» وعند ما حكمنا على واقع الانسان ما هو فاننا لم نتتبع جميع افراد الجنس الانسانى قبل حكمنا هذا عليه وانما حكمنا عليه هذا الحكم من خلال ادراكنا لواقع ما عليه بعض افراد هذا الجنس .

ولكن عند ما نريد ان نحكم بان احمد طويل شجاع كريم -
مثلا - فانه لا يجوز لنا الحكم قبل ان يقع حسنا على احمد ذاته وعلى
الآثار الدالة على وجود الشجاع والكرم عنده،أو أن ينقل لنا ذلك عنه.
وهكذا بالنسبة الى حكمنا على واقع ما عليه الاجرام الكونية
فاننا انما حكمنا على واقعها ما هي .

هل هي ازلية ام انها غير ازلية؛ هل هي مستغنية عن غيرها
بنفسها ام انها محتاجة الى غيرها ؟! هل هي قادرة على تنظيم نفسها
ام انها محتاجة الى من ينظم لها حركتها الدائمة المستمرة ؟!
فهذه كلها احكام منصبة على واقع ما عليه هذه الاجرام فيكفي
فيها ادراك بعضها، ومن خلال هذا العدد نستطيع ان نحكم على جنس
هذه الاجرام ما هي .

اما الاوصاف الخاصة بكل جرم فان هذا ليس من الامور
المتعلقة ببحثنا هذا، ولهذا فاننا لسنا بحاجة الى التعرض لها فلا نقول
مثلا : ان جرم الشمس جرم حارمشع وان جرم القمر بارد وان الشمس
اكبر من القمر وان الحياة منعدمة في جرم كذا محتمل وجودها في
جرم كذا . وذلك لان بحثنا منصب على الوصول الى معرفة ما اذا
كانت هذه الاجرام ازلية مستغنية بنفسها عن غيرها ام انها غير ازلية
فهي محدودة وعاجزة ومحتاجة . هذا هو مكان البحث فقط ومكان
البحث هذا لا يلزم منه ادراك جميع ما في الكون من اجرام حتى
نستطيع ان نحكم عليها، بل يكفي ان يثبت لبعض افراد هذا الجنس
من الاجرام وصف يتعلق بواقعها ما هي ومن خلال هذا الوصف
نحكم على جميع افراد هذا الجنس ما واقعها .

الانسان محدود وعاجز ومحتاج

ان محدودية الانسان ظاهرة فى امور كثيرة منها .

١ - وجوده فى هذه الحياة : فهو محدود الوجود ، فوجوده له بداية بدأت بوجوده، وله نهايه تنتهى بانتهاء حياته من هذا الوجود .

٢ - خضوعه للدائرة القسرية المفروضة عليه، ومنها اطوار خلقه، فهو محدود الاطوار وكل طور من اطوار خلقه له بداية وله نهاية فطور النطفة ينتهى عند ما يتحول الانسان الى طور العلقة ومن هنا يبدأ طور العلقة وينتهى هذا الطور عندما يتحول الانسان الى طور المضغة ومن هنا يبدأ طور المضغة وينتهى هذا الطور عندما يتحول الانسان الى طور العظام فاللحم . . . وهو محدود الوجود فى بطن امه، وهو محدود الوجود فى طور الطفولة وفى طور الشباب وفى طور الكهولة، وهو ينتقل من طور الى طور آخر بدون ارادة منه .

٣ - خضوعه لحدود الدائرة الارادية، فهو يتحرك الحركة الارادية بحدود ما منح من الارادة فيها ولا يستطيع ان يتعدى هذه الحدود. وعلمه الارادى محدود وسمعه الأرادى محدود فلا يستطيع ان يعلم كل شئ ولا ان يسمع من أبعد حدود سمعه ولا ان يرى لابعد من حدود بصره . وهو محدود القدرة فلا يستطيع ان يحمل او ان يتحمل اكثر من طاقته الممنوحة له .

واما عجز الانسان فظاهر فى عدم استطاعته الخروج على هذه المحدودية وعدم القدرة على التخلف عنها . واما احتياجه فظاهر فى وجوده فهو وجد فى هذه الحياة فاما ان يكون هو الذى او جد نفسه

او انه محتاج فى وجوده الى غيره حتى او جده. وكون الانسان يدرك انه لم يوجد نفسه فانه يدرك ان وراء وجوده موجداً او جده . ولهذا نجد ان غريزة التدين عنده تدفعه للبحث عمن وراء وجوده ليقف الى جانبه فى اوقات عسره وشدته . قال تعالى : « ام خلقوا من غير شئ ام هم الخالقون ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون .»

وبهذا يظهر لنا قطعا ان الانسان محدود وانه عاجز عن الخروج على هذه المحدودية وانه محتاج فى وجوده الى من او جده اذ لو لا وجود الخالق له ـ وهو الله تبارك وتعالى ـ لما وجد الانسان .

﴿الحياة محدودة وعاجزة ومحتاجة﴾

ان الحياة من الامور التى لا يقع الحس على ذاتها وانما يدرك وجودها من ادراك الأثر الدال على ذلك الوجود. والحياة سر من اسرار الخالق والذى لم يطلع عليه احداً من خلقه قال تعالى . «ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا» ومن الآثار الدالة على وجود الحياة الحركة، فالحركة مظهر من مظاهر وجود الحياة فى الكائن الحى وعند النظر الى الحركة الصادرة عن وجود الحياة نجد انها مظهر فردى وعلى هذا فان وجود الحياة يكون فردياً تبعا لهذا المظهر الدال على وجودها، فهى توجد فى الجنين عند بدء الحركة عنده، وتنتهى بانتهاء الحركة فيه. فهى اذاً لها بداية تبدأ ببدء حركة الجنين ولها نهاية تنتهى بانتهاء الحركة فى الإنسان او فى الكائن الحى ، وكون الحياه لها بداية ولها نهاية فهذا يدل على انها غير ازلية وغير مستغنية بنفسها عن غيرها وذلك لان صفة الاستغناء انما هى ثابتة لواجب الوجود فواجب الوجود هو

المستغنى بنفسه عن غيره وغيره محتاج اليه . فهو الذى تستند جميع الأشياء فى وجودها اليه وهو لا يستند الى شىء بل مستغن بنفسه عن غيره. وكون الحياة لها بداية وجود فى الكائن الحى، وكونها وجدت فيه بعد ان لم تكن موجودة. فهذا يدل على انها قد استندت فى وجودها الى واجب الوجود وهو الخالق الازلى إذ لو لا وجوده لما وجدت الحياة . والماديون يعترفون بانتهاء الحياة فى الفرد الا انهم يقولون ان مجموع الحياة لاتنتهى .

والجواب على ذلك هو ان الحياة لا تدرك ذاتها وانما يدرك وجودها من ادراك المظهر الدال على وجودها ومن مظاهر الحياة الحركة فاذا اردنا ان نقرر ان الحياة موجودة فى هذا الكائن الحى فاننا ننظر فاذا وجدنا ان عنده حركة الحياة مثل حركة القلب والدم . . . فاننا نحكم بان الحياة لاتزال موجودة فيه، اما اذا وجدنا ان حركة الحياة قد توقفت عنده تماماً فاننا نحكم بان الحياة عنده قد انتهت . وكما ان حركة قلب كل فرد من افراد الكائنات الحية انما هى حركة مستقلة وخاصة بذلك الفرد فان الحياة تكون حياة مستقلة وخاصة تبعاً لهذه الحركة الفردية ، فحياة الطفل مثلا غير حياة امه التى ولدته وغير حياة ابيه الذى انجبه . . . فكل كائن حى له حياته الخاصة به ، فاذا ما اردنا ان نتعرف على وجود الحياة او على عدم وجودها فاننا انما ندرك ذلك من خلال الكائن الحى الذى يتمثل وجود او عدم وجود الحياة فيه، اما كلمة ـ مجموع الحياة ـ فانه ليس له واقع حتى ندرك هل هو من الأحياء ام من الجمادات اذ ليس هناك شىء اسمه او واقعه انه مجموع الحياة، وان الحياة يتمثل

وجودها او عدم وجودها فيه حتى نستدل من خلال هذا الواقع على واقع ما عليه الحياة، وانما الواقع الذى يستدل به على وجود او عدم وجود الحياة انما هو واقع الكائن الحى فقط ،

وبهذا يظهر لنا بالدليل العقلى القاطع ان كل من الانسان والكون والحياة محدودة وعاجزة ومحتاجة، وان وجودها بعد ان لم تكن موجودة هوالدليل القاطع على وجود خالق لها اذ لو لا وجود الخالق لما وجد الخلق، وان واقع ما عليه الخلق هو الناحية الروحية والتى يستطيع أى انسان ان يدرك من خلال هذا الواقع وجود الخالق، وان هذه الادلة العقلية على وجود الخالق مطابقة لواقع ما عليه هذا الكون والانسان والحياة تمام المطابقة، وذلك لان واقع الكون والانسان والحياة انها موجودة (وهذا هو واقعها)، ويترتب على هذا الواقع ان يكون وجودها اما بنفسها فهى التى اوجدت نفسها بنفسها، واما ان يكون لها موجد او جدها ، وكونه قد ثبت قطعا ان هذه الاشياء غير مستغنية بنفسها عن غيرها وكونها تسير حسب نظام فرض عليها من غيرها ولا تستطيع الخروج عليه او التخلف عنه فهذا يدلنا دلالة قاطعة على وجود خالقها اذ لو لا وجود الخالق لما وجد هذ الخلق .

﴿ الادلة العقلية القاطعة على ان القرآن هو كلام الله قطعاً ﴾

القران هو كتاب عربى اللغة والأسلوب فهو إما أن يكون من وضع وتأليف العرب وإما أن يكون من وضع وتأليف محمد صلى الله عليه وسلم، وإما أن يكون كلام الله قطعاً . هذه هى

الاحتمالات الثلاثة هي التي يمكن أن ترد على موضوع إثبات القرآن، فهي احتمالات ثلاثة لا رابع لها .

فأما أن يكون هذا القرآن من وضع وتأليف العرب فباطل قطعاً وذلك لأن القرآن مائه وأربع عشرة سورة .

وقد تحدى القرآن العرب ان يأتوا بعشر سور مثله . قال تعالى : «ام يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين .»

وقد تحداهم ان يأتوا بسورة من مثله قال تعالى : «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين .»

بل انه قد تحدى الانس والجن على ان يأتوا بمثله قال تعالى : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

ومع هذا التحدى الحافز للهمم فقد عجز العرب ولا يزالون عاجزين عن الاتيان بما تحداهم به القرآن الكريم. فالقرآن الكريم ١١٤ سورة فلو أنه كان من وضع العرب وتأليفهم فكيف يعجز هؤلاء العرب عن الاتيان بسورة من مثله ؟! وعجز العرب عن الاتيان بما تحداهم به القرآن ظاهر في الامور التالية :

١ - وصف العرب لهذا القرآن بأنه سحر .

٢ - وصف العرب لهذا القرآن بأنه من اساطير الأولين .

٣ - تلمس العرب لمصدر هذا القرآن في غيرهم .

٤ - لجوء العرب الى استعمال القوة بدل الاتيان بما تحداهم به القرآن .

هذه الامور الاربعة تدلنا على عجز العرب عن الاتيان بما تحداهم به القرآن الكريم .

(ج) فاما وصف العرب أو بعض العرب لهذا القرآن بأنه سحر فهذه دعوى يدعيها كل من يعجزه امر من الامور، وقد كان كلما اتى رسول الى قومه بمعجزة قالوا عنها انها سحر أو وصفوا من أتى بها بالجنون قال تعالى : «كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون اتواصوا به بل هم قوم طاغون .»

وحتى لا يلتبس امر السحر بالمعجزة على بعض الناس نذكر هنا بعض ما يفترق به امر المعجزة عن السحر، ومن خلال ادراك هذه الفوارق يمكن لنا ان نميز بين ما هو معجزة وبين ما هو سحر .

١ - ان السحر امر طارئ يؤثر فيه الساحر على حواس المسحور فيريه أو يسمعه الأمور على غير حقيقتها، ولكن سرعان ما يزول السحر عن المسحور اذ انه لا حقيقة له ثابتة وانما هو امر طارئ فقط .

اما المعجزة فان لها حقيقة ثابتة لا تزول، وخاصة اذا كانت المعجزة معجزة خالدة كالقرآن الكريم .

٢ - ان السحر علم يستطيع أى انسان ان يتعلمه وان يأتى بمثل ما يأتى به امثاله من السحرة من ضروب السحر .

واما المعجزة فانها لا يمكن ان تأتى عن طريق التعلم لأنها أمر

من عندالله مباشرة، وواقعها انها امر خارق للعادة يعجز الخلق عن الآتيان بمثلها يؤيد الله بها صدق رسالة من جاءبها .

(ب) واما وصفهم لـه بانه من اساطير الاولين فهذا الوصف فيه حيدة عن ما تحداهم به القرآن، اذ ان موضوع التحدى هو الاتيان بسورة يكون الاسلوب الذى تحتوى عليه هذه السورة يشبه لأسلوب سورة من سور القرآن الكريم.فالتحدى اذاً منصب على الاسلوب الذى جاء عليه القرآن الكريم فى تراكيب كلماته وآياته . هـذا هو الموضوع وليس الموضوع هـو ان هـذا الكلام يشبه كلام السابقين او ان هـذا القرآن فيـه اخبار عن السابقين ، وليس الموضوع هـو اشتمال القرآن على قصص واخبار عن الأمـم السابقة أو عن احوال الانبياء والرسل مع اقوامهم .

لأن ماحكاه القرآن عن احوال الرسل السابقين مع أقوامهم ، لـم يكن بنفس لغة اولئك الرسل . وانما صاغـه الله لنا باللغة العربية وبالاسلوب القرآنى المتحدى به.، والا فان كل نبى ارسل الى قومه بلغتهم وبلسانهم . قال تعالى : «وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهـو العزيز الحكيم» فلغة سيدنا ابراهيم بلسان قومه ولغة سيدنا نوح بلغة قومـه ، وهكـذا جميع الرسـل السابقين والأنبيـاء. فالموضوع هو التحدى بالاسلوب الـذى جاء به القـرآن الكـريم سـواء اذكـر شيئاً عن احـوال الا مم السابقة ام لم يذكر .

(ج) وامـا تلمس العرب لمصدر هـذا القرآن فى غيرهـم من الأمم فهـذا وحده كاف للـدلالـة على عجز العرب عن الاتيان بما

تحداهم به القرآن . اذ لو ان القرآن كان من وضعهم وتأليفهم لما تلمسوا مصدره فى غيرهم . فتلمس العرب لمصدر القرآن فى غير العرب دليل على ان تحدى القرآن لهم وعجزهم عن الاتيان بما تحداهم به القرآن قد افقدهم صوابهم فذهب بعضهم يلتمس مصدر هذا القرآن فى راهب رومانى اسمه بحيرا فقالوا ان الذى يعلم هذا القرآن لمحمد انما هو بحيرا الراهب . وذهب بعضهم الى القول بأن الذى يعلم القرآن لمحمد انما هو غلام رومانى اسمه جبْر . . .

مهلا قريش لا تعجلى الأمر، فانتم سادة العرب وفصحاؤها، انتم الحكم بين جميع القبائل العربية فى موضوع اللغة العربية واساليبها ، انتم اهل سوق عكاظ وذى المجنة . . . انتم الذين تأتى اليكم القبائل العربية بشعرائها وخطبائها وبلغائها وادبائها وفصحائها . . . ليعرضوا عليكم فى اسواقكم انتاجهم الادبى واللغوى من شعر ونثر فى كل عام، فما استحسنتم منه استحسنه الناس تبعاً لاستحسانكم له، وما استهجنتم منه استهجنه الناس تبعاً لاستهجانكم له . وما اعجبتم به علقتموه فى جوف الكعبة تقديراً له، اعجب به الناس تبعاً لأعجابكم به وقدروه تبعاً لتقديركم له . انتم أهل الاختصاص فى اللغة العربية وفى اساليبها شعراً ونثراً . انتم فطاحل اللغة العربية واصحاب الصولجان فيها . . . فما بالكم الآن وانتم تتلمسون مصدر هذا القرآن العربى المبين فى غيركم من الناس ؟! ما بالكم ؟! أءذهب تحدى القرآن لكم بصوابكم ؟! كيف اسندتم تعليم هذا القرآن لمحمد الى جبر الرومانى او الى بحيرا الراهب الرومانى ؟! الم تعلموا انهما اعجميان فلا يعرفان من اللغة العربية شيئاً؟! فكروا قليلا يا سادة قريش، فكروا قليلا

يا بلغاء العرب وفصحاءها، فكروا قليلا يا اصحاب الاختصاص فى اللغة العربية وفى اساليبها ، فكروا قليلا لتعلموا ان ما قلتم من قول فانه لا يطابق الواقع. فكروا قليلا لتعلموا ان الذى اسندتم إليه تعليم محمد لهذا القرآن بهذا الاسلوب انما هو اعجمى فى واقعه،وان واقع هذا القرآن انه عربى مبين ، اسمعوا يا سادة قريش، اسمعوا الى القرآن وهو يقرع اسماعكم ليوقظكم من ذهولكم، وليردكم الى صوابكم، اسمعوا إليه اذ يقول .

«ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين .»

(د) واما استعمال قريش القوة بعد عجزهم عن الاتيان بما تحداهم به القرآن فظاهر فى تعذيبهم لبعض من اسلم من اصحاب رسول الله محمد ﷺ وقتل بعضهم حتى الموت وتضيق العيش على بعضهم حتى اضطروهم الى الهجرة من بلدهم مكة الى الحبشة ثم الى المدينة .

وبهذا يظهر لنا ان القرآن الكريم ليس من وضع العرب قطعاً وذلك لأن القرآن تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله وقد ثبت قطعاً عجز العرب عن الاتيان بما تحداهم به القرآن ولا يزال التحدى قائماً والعجز واقعاً .

واما احتمال ان يكون هذا القرآن من وضع محمد وتأليفه فباطل ايضاً . وبطلان ذلك ظاهر فى امور ثلاثة وهى :

١ ـ ان محمداً واحد من العرب والقرآن قد تحدى جميع العرب فيكون التحدى شاملا لمحمد ﷺ وقد ثبت قطعاً عجز العرب

عن الاتيان بما تحداهم به القرآن ومحمد ﷺ واحد منهم فما يعجز عنه جميع العرب مما له علاقة باللغة والاسلوب فانه من المستحيل ان لا يعجز عنه واحد منهم، فالاسلوب يكون دائما مشتركاً بين من يتحدث بهذه اللغة، فاذا عجز الجميع عن الاتيان بكلام يشتمل على اسلوب يشبه اسلوب القرآن الكريم فانه من المستحيل ان يستطيع واحد منهم ان يأتى بكلام على الاسلوب الذى عجز عن الاتيان بمثله جميع الافراد الذين يتكلمون اللغة العربية . فالانسان مهما كان فصيحاً وبليغاً فان اسلوبه لا يمكن ان يخرج عن كونه اسلوباً انسانياً رفيعاً. والاسلوب الانسانى لا يمكن ان يعجز عن الاتيان بمثله جميع الناس . وهذا يدل على ان الأسلوب الذى جاء به القرآن وان كان اسلوباً عربياً الا انه اسلوب الهى قد صيغ بقالب عربى مبين وهو اسلوب غير مستطاع الاتيان بمثله من جميع الخلق وقد انزل الله القرآن بهذا الاسلوب المعجز ليجعله معجزة يؤيد بها صدق رسالة من ارسل به وهو سيدنا محمد ﷺ وليخلد به معجزات بعض الانبياء والرسل الذين ذكر معجزاتهم القرآن الكريم والتى لو لا وجود القرآن الكريم لما كان لتلك المعجزات اى ذكر او اى واقع يستدل به على صدق رسالة من ارسلوا وايدوا بها .

٢٠ ـ ان اسلوب أى إنسان فى التعبير لابد ان يتدرج من الضعف الى القوة ومن القوة الى ما هو اقوى حتى يبلغ اسلوب البلاغة والبيان عنده مرتبة امثاله من البلغاء الفصحاء . والناظر الى اسلوب القرآن الكريم لا يجد هذا التدرج فيه وانما يجده وحدة متكاملة لا فرق بين اول ما نزل منه ـ اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق

الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الـذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ـ وبين أواخر مـا نزل منه ــ اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ــ مع ان الفارق الزمنى بين اول ما نزل من الآيات منه وبين أواخر ما نزل من الايات منه. هو فارق كبير جداً فهو يقارب الثلاث والعشرين سنة .

٣ ـ ان لمحمد ﷺ احاديث رويت عنـه بطريق التواتر فهى ثابتة عنه قطعا فاذا مـا قارنا اسلوب مـا روى عنه من الاحاديث المتواترة وبين اسلوب القرآن الكريم فاننا لا نجـد اى تشابـه بين الاسلوبين، وهذا يدركه كل من أوتى فهماً جيداً فى اساليب اللغة العربية ، فاسلوب الحديث المتواتر اسلوب انسانى بُشرى غير معجز قـال رسول الله ﷺ ــ من كذب على عامداً متعمداً فليتبوء مقعده من النار ـ اما اسلوب القرآن فانه اسلوب معجز فلا يستطيع اى مخلوق ان يأتى بمثله قال تعالى : قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفواً احد . ـ فاى انسان يملك الذوق الادبى فى اللغة العربية ويعرف اساليبها وتراكيبها لا يستطيع الا ان يقول : انـه لا تشابه بين الاسلوبين قطعاً. اسلوب الحديث المتواتر الـذى أوردنا واسلوب الآيات التى أوردناها من القرآن الـكريم. وهذا يـدل على ان القرآن الكريم ليس من وضع وتأليف سيدنا محمد ﷺ .

فاذا ثبت قطعاً ان القرآن ليس من وضع وتأليف العرب ـ وقد ثبت ـ واذا ثبت ان القرآن ليس من وضع وتأليف محمد ﷺ قطعاً ــ وقـد ثبت ــ فـان هـذا القرآن يـكون كلام الله قطعاً . وذلك لان الاحتمالات الواردة على اثبات القرآن هى اما ان يكون من وضع

العرب واما ان يكون من وضع محمد ﷺ واما ان يكون كلام الله قطعاً وهي احتمالات ثلاثة لا رابع لها.وبما انه قد ثبت بطريق القطع ان القرآن ليس من وضع وتأليف العرب.وقد ثبت ايضاً بطريق القطع انه ليس من وضع محمد ﷺ .وبعد انتفاء هذين الاحتمالين فانه يكون كلام الله قطعاً وذلك لان القرآن له وجود قطعاً ووجوده متعلق بوجود تلك الاحتمالات الثلاثة فقط فاذا انتفى احتمال كونه من وضع العرب وانتفى احتمال كونه من وضع محمد ﷺ فانه يثبت قطعاً ان وجوده ، انما كان بسبب الاحتمال الثالث وهو انه كلام الله قطعاً .

﴿الدليل القاطع على ان محمداً رسول الله﴾

لا يجوز التصديق او الاعتقاد برسالة اى انسان يقول عن نفسه أنه رسول أو انه نبي حتى يأتي بالدليل القاطع على صحة ما يقول، وذلك لاحتمال ان يكون ذلك الشخص دعياً كذاباً. ثم ان الأصل في الانسان انه غير رسول ولا نبي ولا يخرجه عن هذا الأصل الا الدليل القاطع ، فاذا أتى بالدليل القاطع فقد انتفت عنه الاحتمالات واصبح الايمان برسالته أو بنبوته واجباً. والدليل القاطع على صدق رسالة أي رسول أو نبوة أي نبي انما هي المعجزة أو اخبار قاطعة عن من ايد بالمعجزة تدل على صدق رسالة أو نبوة من اخبر عنه المؤيد بالمعجزة انه نبي أو رسول . والمعجزة هي أمر خارق للعادة يعجز الخلق عن الاتيان بمثلها مع وجود عنصر التحدى لهم، يؤيد الله بها صدق رسالة من جاء بها .

وقد يلتبس على بعض الناس امر المعجزة بالسحر فيظنون ان

ما جاء به الرسول من المعجزات انما هو من السحر، ولادراك الفرق بين السحر والمعجزة فلابد لنا من ادراك واقع كل منهما

فاما واقع السحر فانه علم يأتى عن طريق التعلم ويستطيع أى انسان ان يتعلمه وان يأتى بمثل ما يأتى به امثاله من السحرة من ضروب السحر وانواعه .

واما المعجزة فانها لا تأتى عن طريق التعلم وانما هى امر خاص تأتي من الله مباشرة ولا يستطيع أى مخلوق ان يأتى بمثلها مهما أوتى من علم .

ثم ان المعجزة فيها عنصر التحدى لكل الخلق بما فيهم السحرة . فلو كان السحر والمعجزة شيئاً واحداً لما عجز السحرة عن الاتيان بالمعجزة .

ثم ان من ضروب السحر الاستعانة بالجن. والقرآن ـ وهو معجزة سيدنا محمد الخالدة ـ قد تحدى الانس والجن على ان يأتوا بمثله قال تعالى : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .»

والقرآن قد ثبت أنه كلام الله قطعاً وهو شرعه الى خلقه فيكون من أتى بهذا القرآن هو رسول من عند الله قطعاً قد جاء برسالة من عند الله وقد أيد بالمعجزة الخالدة على صدق رسالته وهى القرآن الذى اعجز الانس والجن عن الاتيان بمثله مع تحديه لهم . وبما ان الذى جاء بهذا القرآن أو الذى نزل عليه هذا القرآن هو محمد ﷺ فيكون محمد رسول الله قطعاً .

﴿الادلة على عصمة الرسول﴾

عرف المجمع اللغوى العصمة فى كتاب ـ المعجم الوجيز ـ فقال .

العصمة هى منحة إلهية تمنع من فعل المعصية والميل اليها ـ مع القدرة على فعلها .،

فالعصمة اذاً هى المنع والحفظ للمعصوم قال تعالى مخبراً عن الحديث الذى دار بين نوح وابنه : «ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .»

واما وقت وجود العصمة عند أى بنى أو أى رسول فانما يلازم وقت ارساله . أى عند اول بدء الوحى إليه .

فاما قبل ذلك فلا يكون معصوماً وقد ثبت قطعاً ان سيدنا موسى عليه السلام قد قتل نفساً قبل ان يبعث رسولا : «وقتلت منهم نفساً فاخاف ان يقتلون» ـ ومعلوم ان قتل النفس بلا حق قد حرمه الله على الانسانية منذ ان قتل احد ابنى آدم اخاه . فالعصمة اذاً تلازم بعثت الرسول، وتبدأ عنده ببدء ارساله فاذا ارسل صار معصوماً . وعصمة الرسول قد ثبتت بالادلة العقلية القاطعة كما دلت عليها الادلة النقلية : ومن الادلة العقلية التى دلت على وجوب ان يكون الرسول معصوماً .

١ ـ ان العقل يحتم ان يكون الرسول معصوماً اذ لو تطرق

احتمال وقوع الخطإ منه فى التبليغ لتطرق احتمال الخطإ والشك إلى اصل ما ارسل به والى جميع الاحكام الشرعية التى أتى بها .

٢ ـ ان الرسول قدوة لامته وان افعاله من الادلة الشرعية على جواز او وجوب القيام بمثل ذلك الفعل فاذا لم يكن الرسول معصوماً فانه قد يقع منه فعل الحرام وعندها تكون الادله الشرعية بالنسبة لفعله ادلة متناقضة وهذا مما لا يجوز وجوده عقلا فى الشريعة .

هذا بالنسبة للادلة العقلية على اثبات عصمة الرسول ، اما الادلة النقلية فكثيرة منها .

(ا) لقد اخبرنا الله تعالى انه هو الذى حفظ سيدنا يوسف عليه السلام من فعل الفاحشة عند ما راودته التى هو فى بيتها عن نفسه قال تعالى : «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين .»

وحتى ندرك ماحصل لسيدنا يوسف مع المرأة تمام الادراك فلابد لنا من ان نستعرض الآيات، ثم نفهم ما جاء فيها فهما تشريعياً على ضوء فهمنا لواقع الانسان من حيث هو انسان .

اما الآيات فقد قال تعالى : «وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها لو لا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين .»

ونحن اذ نستعرض هذه الآيات لنفهم منها حقيقة ما حصل ،

فلا يهمنا تفسير من فسر ـ الهم/تفسيراً اخرجه عن دلالته الحقيقية ـ كما انه لا يهمنا تفسير من فسره تفسيراً يتنا فى مع ما عليه سيدنا يوسف من العصمة .

وانما يجب علينا ان نفهم معنى ـ الهم/حسب دلالة اللفظ عليه وحسب واقع من صدر عنه. من خلال وجوده فى سياق هذه الآيات الكريمة . وعند النظر الى سياق هذه الآيات نجد ان الله تبارك وتعالى قد ذكر لنا امتناع سيدنا يوسف عن اجابة المرأة لطلبها قبل ان يذكر لنا ماحصل من الهم منه بها قال تعالى : «وقالت هيت لك قال معاذ الله» ثم يذكر الله تعالى بعد ذلك ـ الهم/فيقول : «ولقد همت به وهم بها .»

اذاً فما فائدة تقديم امتناع سيدنا يوسف عن الاستجابة لطلبها على حصول الهم بها عنده؟! وما هو واقع ذلك الهم الذى حصل منه؟!

اما تقديم الامتناع على الهم فاننا نفهم منه ان الله تعالى قد بين لنا الحالة التى كان عليها سيدنا يوسف عليه السلام عند ما راودته تلك المرأة عن نفسه . حتى اذا ما مر القارىء بعد ذلك بكلمة ـ وهم بها ـ فعليه آنذاك ان يفهمها حسب فهمه لذلك الموقف الذى كان عليه سيدنا يوسف عليه السلام ، فكان فهم الحالة التى كان عليها سيدنا يوسف عليه السلام قيداً لفهم معنى (كلمة وهم بها) .

هذا بالنسبة لفهم فائدة تقديم الامتناع على الهم اما ما هو واقع ذلك الهم الذى حصل منه ، فان . هذا انما يدرك من خلال ادراكنا لواقع ما عليه الانسان نفسه، فالانسان من حيث هو انسان ، عنده غريزة بقاء النوع ووجود الغريزة عنده أمر فطرى وهى داخلة فى

الدائرة القسرية فلا ارادة ولاخيار للانسان فى وجودها عنده ثم إننا قد علمنا ان الغريزة اذا وجد ما يثيرها فانها تثار. واثارتها أمر فطرى لا ارادة للانسان فيه ، وعند ما تثار هذه الغريزة تدفع بالانسان للقيام باشباعها مهما كان نوع هذا الاشباع. وكل هذا يقع على الانسان ضمن الدائرة القسرية التى لاارادة له فيها مطلقاً ولاخيار ومن ثم فانه غير محاسب ولا مسؤول عما يقع عليه مما هو من ضمن هذه الدائرة القسرية. غير ان الانسان مسؤول عن القيام بالاشباع وعن نوع الاشباع الذى يشبع به هذه الغريزة. فالانسان مع وجود هذا الدافع الغريزى يستطيع ان يشبع الغريزة ويستطيع ان يكبتها فلا يشبعها ويستطيع ان يشبعها الاشباع الصحيح ويستطيع ان يشبعها الاشباع الخاطىء او الاشباع الشاذ فهذا كله واقع فى الدائرة الاختيارية عنده وهو مسؤول عن هذا الاشباع اذا كان اشباعاً غير صحيح .

ويوسف عليه السلام عنده غريزة بقاء النوع وعنده الدافع الغريزى لاشباعها. وانكار وجود الدافع الغريزى عنده هو انكار الانسانيته . ثم ان الآيات تبين لنا ان المثير الخارجي لغريزة بقاء النوع قد وجد بأعلى اشكال الأثارة. فهذا مظهر ما عليه المرأة وهى تعد نفسها لاغراء سيدنا يوسف بها، وهذه الأعمال التى كانت تقوم بها من اجل الامعان فى الأثارة ـ وغلقت الابواب ـ حتى اذا ما وجدت ان مظهرها المثير واعمالها المثيرة لم تجد نفعاً عمدت الى الاغراء بصريح الكلام ـ وقالت هيت لك ـ ومعروف ان المرأة لا تلجأ الى التصريح فى مثل هذا الطلب الا اذا فشلت جميع محاولاتها الأخر . اذاً فلا عجب اذا ما ثارت غريزة بقاء النوع عند سيدنا

يوسف عليه السلام ثم اخذت هذه الغريزة تدفع به للقيام باشباعها (ـ ولقد همت به وهم بها) ـ غير اننا نجد ان الآية تصل هذا الهم بحرف يدل على الأمتناع لوجود ـ (لولا ان رأى برهان ربه) ـ فالامتناع قد حصل لوجود هذا البرهان وهذا البرهان هو ما قام عنده من انه لا يجوز له ان يشبع هذه الغريزة التى تدفعه لاشباعها فى هذه المرأة. فهذه المرأة ليست محل الاشباع الصحيح بالنسبة له فهى ليست زوجة له وعليه اذاً ان يمتنع عن هذا الاشباع الخاطىء لانه اشباع محرم عليه. غير ان الاشباع الخاطىء قد يقع فيه الانسان من حيث هو انسان ولكن من المستحيل ان يقع فيه الانسان اذا كان رسولا او نبياً لوجود العصمة فيه ولهذا نجده يفر هارباً من الموقف الذى اثيرت فيه غريزته ويصر على انه من المستحيل ان يشبع غريزته فيما تدفعه الى الاشباع بها. ويتلخص فهمنا لمعنى هذه الآيات كالتالى :

١ ـ ان سيدنا يوسف عليه السلام مع كونه نبياً فانه انسان وعنده جميع الدوافع الغريزية .

٢ ـ ان ما حصل عنده من الهم بها بسبب الدافع الغريزى فان ذلك انما يقع فى الدائرة القسرية والتى لا ارادة له فيها ولا اختيار، ومن ثم فانه غير محاسب ولا مسؤول عن ما يقع منه أو عليه فى هذه الدائرة .

٣ ـ القيام بالاشباع لهذا الهم هو من الدائرة الاختيارية عند الانسان وهو مسؤول عن اشباعات غرائزه اذا كان ذلك الاشباع

اشباعاً غير صحيح. ويوسف لم يقم بأى عملية اشباع فى هذه القصة.

٤ - ان صرف سيدنا يوسف عن الوقوع فى الاثم مع تلك المرأة انما كان بسبب العصمة التى عصمه الله بها من الوقوع فى الاثم. ولهذا نجد ان الآيات تسند فعل صرف الاثم عن يوسف الى الله تعالى قال تعالى - كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين .» اللهم الهمنا رشدنا .

(ب) ومن الادلة النقلية على وجود عصمة الرسل هو ما ذكره الله لنا من قصة يونس عليه السلام قال تعالى : «وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .»

فيونس عليه السلام قد ارسله الله الى قومه فبلغهم ما ارسل به إليهم فكذبوه ثم بلغهم ما ارسل به إليهم فكذبوه حتى اذا ضاق بهم ذرعاً تركهم وانصرف عنهم ثم ركب البحر ثم اغرق فيه فوجد نفسه فى جوف حوت كبير - قال تعالى : «وان يونس لمن المرسلين اذ ابق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا ان كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين وارسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين » ففى جوف الحوت ادرك سيدنا يونس انه محكوم عليه البقاء مع من ارسل اليهم مهما صدر منهم من تكذيب له . وقد اشار الله تعالى الى هذه القصة فى عدة مواضع من القرآن الكريم ومنها ما ذكر به

رسوله محمداً ﷺ عند ما ضاق ذرعاً بتكذيب قومه له فقال الله تعالى مخاطباً له : «فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم» وهنا نجد ان الرسول محمداً ﷺ محكوم عليه البقاء مع قومه مهما لاقى من اذا هم الى ان يأذن الله له. ولا يصح له ان يترك قومه بدون اذن من الله له بذلك. وذلك لان ترك الرسول لدعوة من ارسل إليهم يدخل فى باب الاثم ولذا قد عصم الله رسوله محمدا من الوقوع فى الاثم كما عصم رسوله يونس من الوقوع فيه .

جـ- ومن الادلة النقلية على عصمة الرسول محمد ﷺ هو ما ذكره الله تعالى فى كتابه رداً على من زعم ان محمداً يتقول هذا القرآن من عند نفسه فقال تعالى : «ولو تقول علينا بعض الا قاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من احد عنه حاجزين .» وهذا كلام صريح فى ان الرسول لو انه اراد ان يفعل ما فيه اثم ومعصية لما استطاع ذلك وهذه هى عين العصمة .

د- ومن الادلة النقلية على عصمة الرسول بطريق الالتزام هو ما ذكر الله تعالى فى وصف القرآن الكريم اذ قال تعالى «ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .» فكون القرآن محفوظاً من أى باطل قد يتسرب إليه فهذ يلزم ان يكون الرسول نفسه معصوماً من الوقوع فى فعل ما هو باطل اذ لو لم يكن الرسول معصوماً من ذلك لما عصمت الرسالة التى جاء بها ولتطرق احتمال الشك اليها بقدر تطرقه اليه. ومن مجل هذه الادلة نفهم ما يلى .

١ ـ وجوب ان يكون الرسول أو النبي معصوماً من الوقوع في الأثم .

٢ ـ ان عصمة الرسول أو النبي هي امر خاص قد قدره الله فيهم عند ارسالهم .

٣ ـ عصمة الرسول هي من عند الله تعالى . . . والمعصوم من عصمه الله .

٤ ـ بيان ان معنى المعصوم . وهو الممنوع من الوقوع في الأثم بحيث لو انه اراده لما استطاعه .

وبهذا تكون الأدلة القاطعة قد قامت على اثبات الأمور التالية .

١ ـ اثبات وجود خالق يصدر عنه الوحي «وهو الله تعالى .»

٢ ـ اثبات ان ما جاء به الوحي انما هو من عند الله قطعاً «وهو القرآن الكريم .»

٣ ـ اثبات ان من نزل عليه الوحي انما هو رسول الله قطعاً «وهو محمد عليه الصلاة والسلام .»

٤ ـ اثبات ان الرسول معصوم من الخطإ بحيث لو انه اراده لما استطاعه «وهي عصمة التبليغ .»

وبهذا يكون قد ثبت وجود مبدء قد أتى عن طريق الوحي وقد قامت الادلة العقلية والنقلية القاطعة على اثبات وجوده . وعند النظر الى العالم الآن فاننا نجد ان فيه مبادىء ثلاثة فقط وهي .

١ ـ المبدأ الاسلامي .

٢ ـ المبدأ الديمقراطي الرأسمالي .

٣ ـ المبدأ الأشتراكي الشيوعي .

(مولد المبدء الاسلامى)

كان العالم تسوده ظلمة جهل حالكة ، كانت الحياة - وخاصة فى الجزيرة العربية - فى قلق دائم وعدم استقرار، كانت تثار الحروب فيه لا تفه الاسباب فكانت تحصد الاخضر واليابس ، فاذا ما طلبت الأمن خارج حدود الحرم فانك لا تجد له مكاناً. كانت الأم لا تأمن على وليدها من ان يخطف من حجرها ليباع رقيقاً فى سوق النخاسة. وكان الانسان يخشى على نفسه إن هو غادر أهله أو فارق عشيرته، فكان لا يأمن على نفسه من ان يؤخذ رقيقاً، ولا يأمن على ما له من ان يؤخذ سرقة منه أو عنوة عنه . فى وهدة هذا الظلام الحالك كان الانسان يبحث عن القدرة الغيبية التى وراء وجوده، يبحث عنها لتساعده على محنته ولتقف الى جانبه فى اوقات عسره وشدته. فاذا ما اعياه الطلب وعز عليه ادراك المطلب اتخذ لنفسه صنما فجعله الها له ليعلق عليه أمله وآماله عله يجد فى كنف ذلك الصنم شيئاً من الأمن والراحة النفسية حتى ولو كان هذا الأمن وتلك الراحة امنا وراحة وهميتين ، وكان كلما اشتدت ظلمة الجهل على الناس اشتد عندهم الخوف فاشتدت الحاجة عندهم الى ايجاد آلهة جدد حتى اصبحت لا تجد بيتاً فى الجزيرة العربية بما فيها بيوت مكة الا وفيه صنم يعبد من دون الله .

كان الناس وخاصة منهم اهل الكتاب يعلمون ان رسولا سيرسل فى مثل هذا الزمن وانه سيجلب للناس الرحمة والأمن والأستقرار فكانوا يتلمسونه فى كل رجل يجدون فيه الصلاح والأصلاح بين الناس .

كان فى مكة ولد يتيم فقير ولكنه كان صادقاً اميناً ولقد اشتهر بين قومه بهذه الصفات الحميدة حتى انهم كانوا يلقبونه بالأمين وحتى انهم قبلوا تحكيمه فى وضع الحجر الأسود من الكعبة معٌ انه كان اصغر من الجميع سنا .

اشتهر هذا الولد بين الناس بالصدق والأمانة مما دفع بالسيدة خديجة سيدة نساء قريش وأغنى أغنيائهن الى ان تطلبه بنفسا زوجاً لها. فارسلت إليه من يقنعه بالزواج منها. وهى التى طلبها معظم سادات قريش للزواج منها فرفضت طلبهم وترفعت عنهم .

نجحت سفارة خديجة عند ذلك الولد اليتيم فتزوجت منه لشدة صدقه وقوة امانته .

كانت خديجة ذات مال كثير فوضعت كل ما عندها من مال تحت تصرف زوجها الوفى محمد . كان فى مكة انذاك عدد من الناس لا يروقهم ما عليه اقوامهم من عبادة لتلك الاوثان . وكان من بين هؤلاء الناس محمد ﷺ ذلك الولد اليتيم زوج خديجة عليها السلام. كان محمد ﷺ فى حيرة من امر قومه فكان لايروقه مايجد عليه قومه من عبادة لهذه الأصنام ، ولكنه لم يستطع ان يعمل لهم شيئا ، فكان تائه الفكر بين ما عليه قومه من عبادة للاوثان ـ وهو مما لا يروقه

ذلك ـ وبين ايجاد البديل الـذى يجب ان تكون عبادة قومه له ـ وهو لا يعرف عنه شيئا ـ ووجدك ضالا فهدى.

ثم حبب إليه الخلاء فكان يذهب الى قمة جبل قريب من مكة وكان عند قمة ذلك الجبل غار، فكان محمد ﷺ يجلس فى ذلك الغار، يمكث فيه الليالى ذات العدد ثم يعود الى مكة، الى زوجته الوفية خديجة .. فاذا ما سئم من عمل قومه عاد الى ذلك الغار بعيداً عن ضوضاء مكة وضجيجها.

كان وهو فى ذلك الغار يفكر فى هذا الكون الواسع الارجاء وكان يتساءل، من وراء وجود هـذا الكون ؟! وكيف وجد ؟! ولماذا وجد ؟!

اسئلة تطرحها غريزة التدين على كل انسان وتلح عليه ـ وخاصة فى اوقات الشدة ـ ليجد لها حلا صحيحاً. ولكن الانسان يجد نفسه انه عاجز عن حل هذه الأسئلة. فهو لا يستطيع ان يجيب عليها اجابة كاملة مهما أوتى من قوة فى الادراك والتفكير وعندها يلجأ الى القدرة الغيبية التى وراء وجوده ووجود هذا الكون لتساعده على حل هذه الأستفسارات والتساؤلات ولتحلها له حلا صحيحا يشبع غريزة التدين عنده. وفى ليلة من ليالى شهر رمضان وكان محمد ﷺ فيها فى غار حراء نزل الوحى ـ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ـ نزل الوحى على محمد ﷺ ليحمله الاجابة الصحيحة على تلك التساؤلات التى تفرضها غريزة التدين عليه وعلى كل انسان. نزل الوحى ليرسم للانسانية الخطوة الأولى

على الطريق الصحيح للوصول الى حل هذه التساؤلات. لقد بدأ الوحى هذه الخطوة من اقرب الأشياء الى الانسان ومن اشدها التصاقا به . وهو النظر فى خلقه وفى خلق الخاصيات التى عنده كيف وجدت ؟! ومن الذى أوجدها فيه ؟! ومن ابرز هذه الخاصيات هو الفكر الذى عنده والذى بواسطته يستطيع الانسان ان يتعلم ويتعلم . ومن هذه الخاصيات ايضا خاصية القدرة على التعامل بالرموز والقدرة على فهمها والقدرة على التعامل معها وهو خطها بالقلم . ومن هذه الخاصيات خاصية القدرة على الربط بين الرموز وما ترمز اليه والربط بين الواقع وما عنده من معلومات عنه والتى يحصل له بسببها علم لم يكن يعلمه من قبل .

نزل الوحى على رجل امى ليقول له «اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .»

اقرأ أيها الانسان نفسك فانها كتاب مفتوح يستطيع أن يقرأه الامى والمتعلم على السواء. اقرأ كتاب نفسك لتعلم من الذى خلقك ومن الذى كان وراء اطوار خلقك ومن الذى خلق فيك الفكر الذى تستطيع بواسطته ان تتعلم فتعلم ما لم تكن تعلم .

اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .

خمس آيات جاءت لترسم للانسان قواعد الاستدلال للوصول الى معرفة وجود الخالق .

خمس آيات جاءت لترشد الانسان الى ان يفكر فى نفسه وفى اطوار خلقه وفى الخواص التى اختص بها عن غيره من المخلوقات .

فلو ان الانسان قرأ كتاب نفسه ثم فكر فى الأمور التى ذكرتها له هذه الآيات الخمس والتى هى من اشد الأمور به التصاقاً فانه سوف يعلم علماً يقينياً ان وراء خلقه خالقاً خلقه وخلق كل شىء وقد خصه بهذا العقل الذى يستطيع بواسطته ان يتعلم فيعلم ما لم يكن يعلم. اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق ـ اقرا اطوار خلقك ، الم تخلق من علقة فى ظلمات ثلاث : ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة البطن . . . اقرأ . . . من الذى كان يمدك بمقومات الحياة وانت فى هذه الظلمات الثلاث ؟!. اقرأ . . . من الذى حول خلقك من نطفة الى علقة الى مضغة الى عظام فلحم؟!. اقرأ . . . من الذى نفخ فيك الروح وانت داخل تلك الظلمات الثلاث فاصبحت حياً بعد ان كنت ميتا؟!. اقرأ . . . من الذى الهمك ان تقلب رأسك قبيل ولادتك وانت فى بطن امك ليسهل عليك الخروج منه؟!. اقرأ . . . انه ربك الذى خلق . . . فهو الذى كان وراء خلقك وهو الذى كان وراء تطورك فى بطن امك وهو الذى امدك بمقومات الحياة وهو الذى نفخ فيك الروح وهو الذى ألهمك اسهل الطرق للخروج من بطن امك وهو الذى حدد لك الموعد المناسب لولادتك . . . اقرأ وربك الأكرم . . . اقرأ فربك اكرم مما تتصور ومن كرمه انه اعطاك العقل الذى تستطيع بواسطته ان تتعلم فتعلم ما لم تكن تعلم . . . اقرأ . . . ان الذى علمك الخط بالقلم انما هو ربك الذى خلق ومن خلقه ان اعطاك خاصية القدرة على

التعامل بالرموز التى تخط بالقلم . اقرأ وربك الأكرم . . . اقرأ كتاب نفسك لتعلم مقدار نعم الله عليك وان كنت لا تستطيع ان تحصيها عدا ، اقرأ . . . اقرأ وربك الأكرم . . . اقرأ لتدرك فضل الخالق عليك . . . اقرأ . . . اقرأ . . . نزل محمد ﷺ من الغار بعد أن تركه ملك الوحى جبريل . نزل من الغار وذهب الى بيته ترتجف فرائصه خوفاً مما حصل له. نزل محمد ﷺ من الغار بعد ان نقشت هذه الآيات فى صدره فلم يغب عنه منها ولا حرف واحد .

«اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .»

نزل محمد ﷺ من الغار وهو لا يعلم انه قد حمل رسالة الخالق الى الخلق ، نزل ثم دخل بيت زوجته الوفية خديجة. دخل عليها وهو خائف يرتجف. دخل البيت وهو يقول زملونى، زملونى، فظنت زوجته خديجة رضى الله عنها أن برداً قد اصابه فغطته بغطاء وثير ثم جلست الى جواره تستطلعه الخبر . فقال لها رسول الله ﷺ : يا خديجة لقد كاد ان يقضى على الليلة ثم قص عليها ما حصل له فى الغار . . . اخذت خديجة تعمل فكرها فيما قد حصل ازوجها الوفى. انه لم يكن شريراً قط بل ان الخير ليكاد ان يتجسد فيه كاملا حتى أصبح وكأنه الخير يمشى على وجه الارض. اذاً فماذا ياترى هذا الذى حصل له ؟! ولماذا حصل له ما حصل ؟! ثم خلصت الى القول : كلا : ابشر فوالله لا يخزيك الله ابداً. ثم ذهبت به الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان ذا علم واخذت تسأله عما حصل لزوجها . . . وبعد ان سمع ورقة بن نوفل من محمد ﷺ ما قصه عليه من قصته ادرك الأمر ثم رفع

راسه وكان انذاك قد كف بصره فقال : هذا هو الناموس الذى نزل على موسى ليتنى فيها جذعاً ليتنى اكون حياً حين يخرجك قومك فانصرك نصراً مؤزرا . . . قال محمد ﷺ فى دهشة واستغراب أومخرجى هم ؟! فقال ورقة نعم لم يأت رجل بمثل ما جئت به الا عودى وان ادركنى يومك لا نصرنك نصراً مؤزراً .

قال الأمام احمد حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلاجاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحى وهو فى غار حراء فجاءه الملك فيه فقال اقرأ قال رسول الله ﷺ «فقلت ما انا بقارىء ـ قال ـ فاخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى فقال اقرأ فقلت ما انا بقارىء فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى فقال اقرأ فقلت ما انا بقارىء فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق ـ حتى بلغ ـ ما لم يعلم. قال فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال «زملونى زملونى» حتى ذهب عنه الروع فقال يا خديجة «ما لى» واخبرها الخبر وقال «قد خشيت على نفسى» فقالت له كلا ابشر فو الله لا يخزيك الله ابداً انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ثم انطلقت به خديجة حتى اتت به ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى بن قصى وهو ابن عم خديجة اخى ابيها وكان امرأ قد تنصر فى

الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربى وكتب بالعبرانية من الانجيل ما شاء الله ان يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت خديجة اى ابن عم اسمع من ابن اخيك فقال ورقة أبن ما ترى ؟ فاخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال ورقة هذا الناموس الذى نزل على موسى ليتنى فيها جذعاً ليتنى اكون حياً حين يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ «أو مخرجى هم ؟!» فقال ورقة نعم لم يأت رجل قط بما جئت به الا عودى وان يدركنى يومك انصرك نصراً مؤزرا ثم لم ينشب ورقة ان توفى وفتر الوحى .» وبعد نزول هذه الآيات الخمس فتر الوحى فترة ثم حمى وتتابع .

تتابع الوحى على محمد ﷺ ليؤكد له ما قاله ورقة بن نوفل وليخبره ان الذى يراه ان هو الا الناموس الذى نزل على موسى من قبل وليعلمه انه قد حمل رسالة الخالق الى الناس، فعليه ان يبلغهم اوامر خالقهم وان ينذرهم عاقبة مخالفة هذه الاوامر ، وليبين للناس ان عبادة الأوثان ان هى الا رجز فعليهم ان يهجروها وان يطهروا قلوبهم من حبها ومن حب عبادتها ـ يا ايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ـ حدثنا عبدالله بن يوسف حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب سمعت ابا سلمة قال اخبرنى جابر بن عبدالله انه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى . . . . فبينا انا امشى اذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى قبل السماء فاذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والارض فجئثت منه حتى هويت الى الارض فجئت اهلى فقلت زملونى زملونى فزملونى فانزل الله تعالى: «يا ايها المدثر قم فانذر الى قوله فاهجر .

قال ابو سلمة والرجز الأوثان ثم حمى الوحى وتتابع .»

﴿ الصراع الفكرى فى مكة ﴾

بعد أن امر رسول الله ﷺ ان ينذر الناس بما جاءه من الوحى أخذ يعمل على تنفيذ امر ربه له فصار يتصل ببعض الناس من أهل مكة يدعوهم الى الدخول فى الاسلام وان يتركوا عبادة الأوثان ثم اتخذ له مقراً فى دار الارقم بن ابى الارقم يجتمع فيه سراً مع من آمن بهذا الدين من أهل مكة وكان كل من آمن بهذا الدين يدعو غيره من الناس الى الدخول فيه فاخذت الافكار الاسلامية تدخل الى قلوب بعض الناس فى مكة فآمنوا بها واعتنقوها عقيدة لهم واخذوا يعملون على نشرها بين اولئك الذين يتوسمون فيهم رشاد العقل ورجاحة التفكير، صابرين على ما يلاقونه من الاذى فى سبيل دعوتهم هذه مؤثرين ما عند الله من نعيم على ملاذ هذه الحياة الدنيا . وقد وصفهم القرآن الكريم بأوصافهم التى كانوا عليها ووعدهم بما ادخره لهم من الثواب فقال تعالى : «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال اننى من المسلمين .»

لم يكن كل أهل مكة قد تقبلوا لهذا الدين الجديد بل انهم كانوا فى جملتهم لا يخرجون عن فئات اربع وهى .

١ - فئة تقبلت هذا الدين واعتنقت عقيدته وجاهرت به واخذت تدعوا الآخرين اليه وهم المؤمنون .

٢ - وفئة لم تقبل بهذا الدين بل ناصبته العداء وحاربته وحاولت ان تحول دون انتشاره. وهم اصحاب المصالح والامتيازات والتى لم يقرهم الاسلام عليها. فالاسلام قد جعل الناس كلهم مسؤلين امام الله ولم يجعل درجة التفاضل بينهم بسبب الغنى أو الفقر ولا بسبب اللغة ولا بسبب اللون وانما جعل مقياس التفاضل بينهم التقوى قال تعالى : «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم .»

ولكن هذا المقياس لم يعجب أصحاب المصالح والامتيازات ولهذا فقد ناصبوا الاسلام العداء .

٣ - وفئة تقبلت هذا الأسلام واعتنقته عقيدة لها ولكنها لم تجاهر به ولم تدعو الناس اليه بل آثرت السلامة ، فكانت تكتم ايمانها خوفا من ان تبطش بها الفئة التى ناصبت الاسلام العداء لانها كانت هى الفئة الحاكمة والمتنفذة والتى بيدها القوة انذاك وقد بقى امر هذه الفئة سراً حتى عام الحديبية السنة ٦هـ . فاخبر الله تعالى رسوله عن وجودها وان لم يخبره انذاك عن اشخاصها قال تعالى : «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو نزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً اليماً .»

٤ - وفئة لم تدخل فى الاسلام ولم تناصبه العداء وانما كانت تراقب الموقف حتى اذا جاء الفتح دخلت هذه الفئة مع من دخل

فى الاسلام قال تعالى : «اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا .»

ومع وجود هذه الفئات الاربع من الناس فى مكة الا ان الفئتين الأولى والثانية هما اللتان كانتا على مسرح الاحداث السياسية .

كان من العادات القبلية أن تنتصر القبيلة لأفرادها . فلا تسمح لأحد ان يوقع على احد افرادها أى اذى، وخاصة اذا كان الاذى أذى القتل فكان من العار على القبيلة اذا قتل منها أحد أو اوذى ولم تأخذ بالثأر من القاتل أو من المعتدى، وربما لم ترض ان تأخذ ثأرها من المعتدى بل تعمد الى شخص من اقاربه له وزنه فتنتقم منه فتأخذ بثأرها .

هذه العادات حالت دون وقوع اذى على افراد الفئة المؤمنة ممن لهم قبيلة من الفئة الكافرة، فاذا ما حصل بعض الاذى لهم فانه كان لا يتجاوز اذى الكلام أو السب أو الشتم ولربما زاد قليلا عن ذلك فوصل الى حد الضرب وقد حصل ان ابا جهل اعتدى على محمد ﷺ بالكلام فاغلظ له القول . . . فلما مر حمزة عم النبي محمد ﷺ فى احياء مكة راكبا جواده قاصداً الصيد رأته احدى نساء قريش فعيرته وقالت له لو رأيت ابا الحكم وهو يغلظ لابن أخيك محمد القول . . . فقال حمزة أو فعلها . . . ؟! فقالت المرأة نعم لقد فعلها ولم يحسب لأحد منكم حساباً. فذهب حمزة الى ابى جهل حتى وقف على رأسه ثم شدخ رأسه بالقوس الذى كان معه فاسال منه الدم ثم قال له : اتسب محمداً وانا عمه ؟! انا على دينه فافعل ما بدى لك. فسال الدم

على وجه ابى جهل فاراد قومه ان ينتصروا لـه من حمزة ولكن أبا جهل قدر ان قوم حمزة ربما انتصروا له ايضا ولربما دخلوا بسبب هذا الانتصار فى ما دخل فيه حمزة فقال لاتباعه: دعوا ابا عمارة فاننى قد آذيت ابن اخيه آنفاً .

لهذا فاننا نجد ان اصناف التعذيب قـد انصبت على الافراد المسلمين والذين ليس لهم قبيلة تدافع عنهم .

فهذا امية ، مهلا امية الى اين انت ذاهب ؟! من هذا الذى معك ؟! ابلال ؟!! لماذا تضع الحبل فى عنقه ؟! اتريد ان تسلمه الى سفهاء مكة من الاولاد ؟! ولماذا ؟! ماذا ؟! اتريد ان تضع هذه الصخرة على بطنه ؟! ولماذا تريد ذلك ؟!! اتريده ان يرجع عن دينه الى دينك ؟!! اسمع يا امية ؟! إنه يقول ـ أحد أحد . أو تظن انه يتحداك يا امية ؟! امية ان الشمس محرقة وإن الصخرة كبيرة ألا تخشى ان يموت بلال فتخسر ثمنه ؟! امية انزع الحبل من عنق بلال وازل الصخرة عن صدره ؟! امية ان الانسان لا يقاد بالحبل من عنقه كما تقاد البهائم ! ان الانسان السوى يا امية انما يقاد لفكره ، فيسير حسب قناعاته لا حسب حبل يربط به من عنقة . امية اذا اردت ان يرجع بلال الى دينك ودين آبائك فأقنعه بالدليل . أقم له الدليل القاطع على ان الهك هبل هو خير من الا له الذى يهتف باسمه والذى آمن به آنفاً. اقنعه يا امية بالحجج القاطعة على ان الهك هبل هو الذى يحى ويميت وهو الذى ينزل الغيث وهو الذى يحى الارض بعد موتها وهو الذى بيده ملكوت كل شيء . . . اقنعه يا امية بالحجج القاطعة على صدق ما تقول فاذا ما اقمت له الدليل

القاطع على ان الهك هبل هو خير من الهه الذى يعبده فانه سوف يعود اليك خاشعا ضارعا يطلب من الهك العفو والمغفرة .

اما اذا لم تستطع ان تقيم له الدليل القاطع على صدق ما تقول ، فهيهات هيهات ان يعود اليك بلال كما كان .

من هناك ؟! ابا الحكم ؟! الى اين انت ذاهب ؟! اسرة من هذه الاسرة التى تقودها كما تقاد البهائم ؟! اليست هذه اسرة ياسر ؟! اليست هذه سمية وهذا عمار وهذا ياسر ؟! ماذا تريد منهم يا ابا الحكم ؟! اتريد ان تعذب سمية لترجع عن دينها الى دينك ؟! ماذا تريد منها ؟! اتخافها ؟! انها امراة ؟! ماذا ؟! أتضربها ؟! الم تعلم ان ضرب الرجل للمرأة عار وسبة فى عرف القبائل العربية ؟!! ابا الحكم لا تضربها ، ابا الحكم على رسلك ، ابا الحكم ماذا فعلت؟! أقتلتها ؟!! انك ابو جهل ولست بأبى الحكم . وهكذا كانت الحياة تسير فى مكة ، حياة صراع بين الكفر والايمان ، حياة قهر وجبروت ، كانت الفئة الكافرة تصب العذاب على الفئة المؤمنة بكل ما أوتيت من قوة وسلطان. كانت الفئة الكافرة تحاول ان تمنع انتشار هذا الدين بين الناس حتى لا يذهب ما لهم من امتياز وما عندهم من مصالح لم يقرهم الاسلام عليها .

ان زعماء قريش كانو يحيطون انفسهم بهالة من الامتيازات على سائر الناس حتى وصلت هذه الامتيازات حد التقديس لاصحابها فخشيت زعامة قريش من ان تذهب عنها هذه الهالة من الامتيازات بسبب انتشار هذا المبدأ ـ وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا ـ

ولذلك فقد كانت تحاول جاهدة ان تحول دون انتشاره وحتى تستطيع ان تمنع انتشار هذا المبدإ كان لابد لها - حسب رأيها - من ان تنزل أشد العذاب بكل من كان يعتنق هذا المبدأ. وقد تفنن زعماء قريش فى ابتكار اساليب التعذيب وكان هذا التعذيب منصباً على الاشخاص الذين ليس لهم قبيلة تدافع عنهم. اما الاشخاص الذين لهم قبيلة تدافع عنهم فان قريشا كانت تتحاشى ايقاع العذاب عليهم فاذا ما حصل اذى لهم فانه لا يتجاوز اذى الكلام بالسب والشتم وربما حصل بعض الضرب . ثم ضاق صدر زعماء قريش باتباع محمد ﷺ من الذين لهم قبائل تدافع عنهم فلجؤا الى اسلوب آخر من اساليب التعذيب معهم ، اسلوب ليس فيه ضرب أو قتل وانما فيه مضايقة وتضييق فى العيش ، لقد تحالف زعماء قريش على مقاطعة المسلمين ومقاطعة من يدافع عنهم ، تحالفوا على ان لا يبيعوهم شيئاً ولا يبتا عوا منهم شيئا وعلى ان لا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم وكتبوا ذلك فى صحيفة ثم علقوها فى جوف الكعبة امعانا فى وجوب التقيد بما جاء فيها . فانحاز المسلمون الى شعب إبى طالب وقد بقوا فيه قرابة ثلاث سنوات يقاسون مرارة الجوع والم الحرمان حتى أنهم اكلوا أوراق الا شجار وجلود الميتة . . .

ثم تحركت انسانية بعض الناس فى مكة وحز فى نفوسهم ما وصل اليه حال أولئك المسلمين فعملوا على نقض هذه الصحيفة الجائرة فنقضت وخرج المسلمون من الشعب اشد عزيمة واكثر تصميماً على التمسك بهذا المبدإ .

لقد اخذ الصراع بين كفار قريش وبين من اسلم منهم مساراً

جديداً فقد قدرت الفئة الكافرة من قريش ان الامر قد اصبح بالنسبة لها امر حياة أو موت. فاما ان يظهر هذا المبدأ وينتشر وعندها يذهب ما لهم من امتيازات. واما ان يحولوا دون انتشاره بكل ما اوتوا من قوة لتبقى لهم تلك الامتيازات ،يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره المشركون .»

فاشتدت وطأة اذى كفار قريش على المسلمين جميعاً حتى ان اذا هم قد لحق برسول الله ﷺ .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن ابى اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبدالله رضى الله عنه قال بينا النبى ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة ابن ابى معيط بسلا جزور فقذفه على ظهر النبى ﷺ فلم يرفع رأسه. فجاءت فاطمة عليها السلام فاخذته من ظهره ودعت على من صنع فقال النبى ﷺ اللهم عليك الملاء من قريش ابا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وامية بن خلف أو ابى بن خلف ـ شعبة الشاك ـ فرأيتهم قتلوا يوم بدر فالقوا فى بئر غير امية أو أبى. تقطعت أو صاله فلم يلق فى البئر .»

بعد ان اشتد اذى كفار قريش على المسلمين اذن الله لهم بالهجرة الى الحبشة فهاجر عدد منهم إليها. ولكن كفار قريش لم يتركوا من هاجر الى الحبشة وشأنهم بل لقد ارسلوا وفداً منهم الى النجاشى ملك الحبشة يحملون له معهم الهدايا والتحف وبعد وصول الوفد وتقديم الهدايا والتحف الى النجاشى واتباعه طلبوا منه ان يعيد من هاجر اليه الى بلادهم أو ان يسلمهم لهم وادعوا أن هؤلاء المهاجرين

انما هم عبيد قد آبقوا من اسيادهم . . .

عقد النجاشي لقاء مناظرة ومناقشة بين المهاجرين اليه وبين وفد قريش وبعد نقاش ومناظرة تبين للنجاشي ان المهاجرين اليه على حق وانهم احرار وليسوا عبيداً كما ادعى وفد قريش ، وعندها رفض تسليم المهاجرين الى الوفد ثم رد عليهم هداياهم وتحفهم وقال لهم ان الله لم يأخذ مني الرشوة عندما جعلني ملكاً ، ثم قال للمهاجرين اليه ان بلادي على امتدادها ترحب بكم تقيمون حيث تشاؤن وتقيمون شعائر دينكم وعباداتكم كما يمليه عليكم دينكم وان احداً منكم لن يقع عليه اى اذى فى جوارى .

اشتد حقد كفار مكة على محمد ﷺ وعلى اتباعه بعد ان رجع وفدهم من عند النجاشي خائباً ، فأخذوا يضاعفون حملة التعذيب والمضايقة على المسلمين واخذوا يراقبون حركاتهم وتحركهم ليحولوا دون المزيد من الهجرة الى الحبشة أو أى مكان آخر . . .

أخذ رسول الله ﷺ يلتمس النصرة لدعوته ليتمكن من نشر هذا المبدأ الذى جاء به من عند الله تبارك وتعالى : فأخذ يغشى الوفود التى كانت تأتى مكة فى منازلها وخاصة فى اوقات المواسم ، يعرض عليهم نفسه ويطلب منهم نصرته ليبلغ رسالة ربه. ثم ذهب الى الطائف وطلب من بعض سادتها النصرة فاشترطوا عليه ان يكون لهم الامر «الحكم»من بعده ان هم نصروه فأبى رسول الله ﷺ ان يقبل نصرة مشروطة وقال لهم انما ذلك امر الله يضعه حيث يشاء . فقالوا تريدنا ان نهدف اعناقنا للموت حتى اذا ما نصرت قلت ذلك امر الله يضعه حيث يشاء ، اذاً لا حاجة لنا بك . فرجع رسول الله ﷺ من الطائف

الى مكة ثم تابع اتصاله بالوفود الذين يأتون مكة فى المواسم يغشى عليهم منازلهم ويعرض عليهم نفسه ويطلب منهم النصرة حتى يبلغ تعاليم ربه الى الناس .

سمع رجلان من أهل يثرب ما يتحدث به الناس عن محمد ﷺ ورأياه يغشى منازل الوفود. فسألا عن قصته فاخبرا بما يقوله محمد ﷺ فقال احدهما للاخر لعل هذا هو الذى تذكره يهودا ويقولون ان نبيا سيأتى هذا اوانه وسنقاتلكم معه ونقتلكم قتل عاد وارم فلا يسبقنا عليه يهودا . . . ثم التقيا بالرسول ﷺ وتحدثا معه وتحدث معهما ثم تواعدوا على ان يلتقوا فى السنة المقبلة فى نفس المكان والزمان بعد ان يعلما قومهما بما دار من حديث . . . وفى العام القادم جاء عدد من أهل المدينة والتقوا برسول الله ﷺ فدعاهم الى الاسلام فدخلوا فيه ثم طلبوا منه ان يرسل معهم من يعلمهم تعاليم الاسلام فارسل معهم مصعب بن عمير وعند انتهاء اللقاء تواعدوا ان يلتقوا فى العام القادم فى نفس المكان والزمان . بعد ان بايعوه على التمسك بتعاليم الاسلام وهى ما تعرف ببيعة العقبة الاولى .

ذهب مصعب رضى الله عنه مع أهل المدينة وأخذ يعلمهم تعاليم الاسلام ويدعو غيرهم للدخول فى هذا الدين فدخل فى الاسلام اعداد كبيرة من الناس ولم يمض العام حتى اصبحت المدينة وليس فيها بيت الا وللاسلام فيه ذكر .

وبعد مرور عام على بيعة العقبة الأولى جاء وفد من أهل المدينة والتقوا برسول الله ﷺ فى نفس المكان السابق حسب الموعد وبعد

نقاش ومداولة اعطوا نصرتهم لسيدنا محمد ﷺ وبايعوه ان هو وصل إليهم على ان يمنعوه مما يمنعون منه انفسهم وازواجهم واموالهم واولادهم وان ينصروه . . . فكانت هذه البيعة هى بيعة على الحكم . اذن رسول الله ﷺ لاصحابه بالهجرة الى المدينة فاخذوا يهاجرون اليها سراً ثم شعرت قريش بان المسلمين يتركون بيوتهم واموالهم وانهم يغادرون مكة . فرصدت تحركاتهم فعلمت انهم لا يهاجرون الى الحبشة الآن وانما يهاجرون الى المدينة فاشتد خوف قريش من هذه الهجرة وذلك لان المدينة تقع على طريق تجارتهم الى بلادالشام وعلموا ان المسلمين ان قامت لهم دولة هناك فانهم سوف يشكلون خطراً على تجارتهم وربما انهم يقضون عليها وهى التى كانت مصدر رزقهم آنذاك فاجتمعوا فى دار الندوة ليدرسوا هذا الامر الخطير وليضعوا حداً لما يقوم به محمد ﷺ من اعمال ، وقد حضر هذا الموتمر ابليس لعنه الله فى زى شيخ نجدى. روى ابن عباس رضى الله عنه ان نفراً من قريش من اشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم ابليس فى صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له من انت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت انكم اجتمعتم فاردت ان احضركم ولن يعدمكم رأى ونصحى . قالوا أجل أدخل فدخل معهم فقالوا أنظروا فى شأن هذا الرجل والله ليوشكن ان يواثبكم فى امركم بأمره فقال قائل منهم احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة انما هو كأحدهم . قال فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال والله ما هذا لكم برأى والله ليخرجنه

ربه من محبسه الى اصحابه فليوشكن ان يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم فما آمن عليكم ان يخرجوكم من بلادكم . قالوا صدق الشيخ فانظروا فى غير هذا . قال قائل منهم أخرجوه من بين اظهركم فتستريحوا منه فانه اذا خرج لن يضركم ما صنع واين وقع اذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان امره فى غيركم . فقال الشيخ النجدى والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله وظلاقة لسانه وأخذ القلوب ما تسمع من حديثة والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل اشرافكم . قالوا صدق والله فانظروا رأيا غير هذا . قال : فقال ابو جهل (لعنه الله) والله لا شيرن عليكم برأى ما اراكم ابصرتمو ه بعد، لا أرى غيره . قالوا وما هو ؟ قال تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسطاً نهداً ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ثم يضربونه ضربة رجل واحد فاذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها فما اظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها فانهم اذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا اذاه . قال : فقال الشيخ النجدى هذا والله الرأى . القول ما قال الفتى لا ارى غيره . قال فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له فأتى جبريل النبى ﷺ فامره ان لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه واخبره بمكر القوم، فلم يبت رسول الله ﷺ فى بيته تلك الليلة واذن الله له عند ذلك بالخروج وانزل الله عليه بعد قدومه المدينة الانفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ـ قال تعالى (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) ـ ا هـ.

خرج رسول الله ﷺ من بيته بعد ان اخبره الوحى بما تآمر به عليه القوم. خرج بعد ان ترك الامام على رضى الله عنه فى فراشه. وقد اخذ الله عنه عيون الحرس الموكلين بقتله. خرج من بينهم بعد ان ألقى الله عليهم النوم فناموا جميعاً ثم ذهب الى بيت ابى بكر وكان قد اخبره بأن الله قد اذن له بالهجرة وكان ابوبكر يعد لهذا اليوم عدته. وبعد ان وصل رسول الله ﷺ الى بيت ابى بكر خرجا جميعاً ثم ذهبا الى غار ثور فى جنوب مكة واختبئا فيه . . . جن جنون مكة فى الصباح عندما علموا ان الذى كان نائماً فى الفراش والذى كانت تحرسه حراسهم ليس الا على رضى الله عنه. وزاد جنونها عندما علمت ان محمداً قد غادر مكة وهاجر منها . . . فارسلت قريش فى أثره الطلب واجزلت الجائزة لكل من يأتى به حيا كان أو ميتاً . فانتشر الطلب واصحاب الطمع يبحثون عن محمد ﷺ فى جميع انحاء مكة وارجائها وماجاورها. ولقد وصل البحث والطلب غار ثور، حتى ان اقدامهم قد وطئت ظهر الغار الذى فيه محمد ﷺ وصاحبه فخاف ابوبكر على رسول الله وقال: يا رسول والله لونظر احدهم الى موطىء قدمه لرآنا . . . فقال له رسول الله ﷺ - يا ابا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما - فهدأت نفس ابى بكر ونزلت عليه السكينة وقد اشار القرآن الكريم الى هذه الحادثة فيما بعد فقال تعالى «الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه .»

بقى رسول الله ﷺ وصاحبه فى غار ثور ثلاثة ايام ثم خرجا قاصدين المدينة المنورة .

بعد بيعه العقبة الثانية - بيعه الحكم - أخذت آيات الاحكام تنزل على رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى : «اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور.»

ثم تتابعت آيات التشريع الاسلامى تنزل فى المدينة قرابة احدى عشرة سنة .

﴿المبدأ الاسلامى بين مكة والمدينة﴾

ان المتتبع لآيات القرآن الكريم المكية يجد انها قد أولت اهتماماً خاصاً لأمور اربعة وهذه الامور هى .

١ - نقض العقائد الباطلة التى كانت سائدة آنذاك من عقائد شركية ودهرية وغيرها .

٢ - بيان ما هى العقائد الصحيحة والتى يجب على الانسان اعتقادها .

٣ - كشف بعض ما كان يقوم به بعض زعماء قريش من خطط ليحولوا بين عقول الناس وبين المبدإ الاسلامى الذى كان يدعو اليه رسول الله ﷺ .

٤ - ضرب العلاقات الفاسدة أو الباطلة التى كانت سائدة بين الناس آنذاك .

هذه هى الامور الاربعة التى اعطيت اهتماماً خاصاً من القرآن الكريم . غير ان هذا الاهتمام بهذه الامور لم يكن على درجة واحدة من التساوى بل لقد كان اهتماماً متفاوتاً . وكان تفاوت هذا الاهتمام بمقدار ما للامر الذى جاءت الآيات لتعالجه من اهمية ، فلقد اعطت الآيات الكريمة أمر نقض العقائد الباطلة وأمر بيان ما يجب على الانسان اعتقاده من العقائد اهتماماً اكثر من امر كشف مخططات بعض زعماء قريش وأمر ضرب العلاقات الفاسدة أو الباطلة التى كانت سائدة آنذاك .

ففى أمر نقض العقائد الباطلة نرى ان الآيات كانت تخاطب القوة العاقلة التى عند الانسان لتوصله الى ادراك بطلان هذه العقائد ادراكاً لا ينكر واقعه الا من جحد نعمة العقل الذى منحه الله للانسان. قال تعالى يخاطب القوة العاقلة عند الانسان: «واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبيا اذ قال لأبيه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يا ابت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى اهدك صراطاً سويا يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا ابت إنى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً .»

وقال تعالى : «قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فانى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى الى الحق افمن يهدى الى الحق احق ان يتبع امن لا يهدى الا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون .»

وقال تعالى : قل ارأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا

خلقوا من الارض ام لهم شرك فى السموات إيتونى بكتاب من قبل هذا أو آثارة من علم ان كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا جشر الناس كانوا لهم اعداء وكانو بعبادتهم كافرين .

وقال تعالى : «بل آتيناهم بالحق وانهم لكاذبون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون .»

وقال تعالى : «فكذلك ألقى السامرى فاخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى افلا يرون الا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً .»

وقال تعالى : «وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولاهم ينظرون واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون وألقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون .»

وقال تعالى : وازلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل اين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس اجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون .»

وهكذا نجد ان اكثر الآيات المكية كانت تقرع اسماع المشركين لتبين لهم حقيقة آلهتهم التى كانوا يدعون من دون الله ولتبين لهم

عاقبة هذا الشرك وما يؤل اليه أصحابه من العذاب والندم والحسرة يوم لا تغنى عنهم آلهتهم من الله شيئاً ، بل إنها ستكذبهم وتتبرأ من عبادتهم اياها الى الله تعالى ـ وألقوا الى الله يومئذ السلم ـ

اما الدهريون والذين ينكرون البعث فقد رد عليهم القرآن فى كثير من الآيات منها .

مشى احد زعماء قريش من المشركين إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم قد بلى فقال يامحمد ايحى الله هذا بعد ما أرى؟ فنزل قوله تعالى : وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحيها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون .

وقال تعالى : «فاستفتهم أهم اشد خلقاً ام من خلقنا انا خلقنا هم من طين لازب بل عجبت ويسخرون واذا ذكروا لا يذكرون واذا رأوا آية يستسخرون وقالوا ان هذا الا سحر مبين أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً اءنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل نعم وانتم داخرون فانماهى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذ يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون .»

وقال تعالى : «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الا على فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم .»

وهكذا فاننا نجد ان معظم الآيات المكية كانت منصبة على نقض العقائد الباطلة من عقائد شركية ودهرية وغيرهما من العقائد التى كانت سائدة فى المجتمع الجاهلى آنذاك .

واما الآيات المكية التى جاءت لترشد الانسان الى اعتقاد ما يجب عليه ان يعتقده من العقائد فكثيرة منها. قال تعالى: «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون .»

وقال تعالى : «ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى سته ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين .»

وقال تعالى : «تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا وهو العزيز الغفور الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور .»

وقال تعالى : «ام خلقوا من غير شىء ام هم الخالقون ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون .»

وقال تعالى : «أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها

وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركاً فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد واحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج .»

وقال تعالى : «امن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أءله مع الله ؟! بل هم قوم يعدلون. امن جعل الارض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله ؟! بل اكثرهم لا يعلمون . امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أءله مع الله ؟! قليلا ما تذكرون امن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أءله مع الله ؟! تعالى عما يشركون . امن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .»

وقال تعالى : «افلا ينظرون الى الا بل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر الا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم .

وقال تعالى : «نحن خلقناكم فلولا تصدقون افرأيتم ما تمنون أءنتم تخلقونه ام نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون افرأيتم ما تحرثون أءنتم تزرعون ام

نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون انا لمغرمون بل نحن محرومون افرأيتم الماء الذى تشربون أءنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون لو نشاء جعلناه اجاجاً فلولا تشكرون افرأيتم النار التى تورون أءنتم أنشأتم شجرتها ام نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يسمه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين افبهذا الحديث انتم مدهنون وتجعلون رزقكم انكم تكذبون فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين .»

وهكذا نجد ان هذه الآيات الكريمة قد جاءت لتوجه القوة العاقلة فى الانسان ليدرك سر وجوده فى هذه الحياة وليدرك من الذى وراء وجوده فى هذه الحياة وليدرك الغاية من وجوده فى هذه الحياة وليدرك ماذا قبل هذه الحياة وليدرك ماذا بعد هذه الحياة وليدرك علاقة هذه الحياة بما قبلها وبما بعدها . . .

واما الآيات التى نزلت لتكشف بعض ماكان يخططه بعض زعماء قريش لصد الناس عن الدخول فى هذا الدين فمنها ما ذكرت الشخص بالاسم الصريح قال تعالى «تبت يدا ابى لهب وتب ما اغنى عنه ما له وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد .»

روى ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ خرج الى البطحاء فصعد الجبل فنادى : يا صباحاه فاجتمعت اليه قريش فقال :

أرأيتم ان حدثتكم ان العدو مصبحكم أو ممسيكم كنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم. قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال ابو لهب ألهذا جمعتنا تباً لك فانزل الله هذه السورة تندد بأبى لهب باسمه الصريح .

فابو لهب اراد ان يقلل من اهمية مادعا رسول الله ﷺ الناس إليه ليصرفهم عن هذه الدعوة فنزل القرآن منددا به باسمه الصريح كاشفاً ما كان يرمى إليه من صد للناس عن هذه الدعوة متوعداً اياه بالعذاب الشديد جزاء عمله هذا .

ومن الآيات ماجاءت تندد بصفة الشخص الصاد دون ذكر اسمه الصريح منها قوله تعالى : «ارأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى أرأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرأيت ان كذب وتولى ألم يعلم بان الله يرى كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة خاطئة فليدع ناديه سندع الزبانية كلا لا تطعه واسجد واقترب ».

روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال ابو جهل لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبه لأطأن على عنقه فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : لو فعل لاخذته الملائكة .

فابو جهل مشهور ومعروف بين الناس بهذه الصفات وهى الصد عن هذا الدين وتعذيب أو تهديد كل من يدخل فيه . فنزلت هذه الآيات تندد به عن طريق الوصف الذى اشتهر به بين الناس آنذاك. ومن الآيات ما جاءت لتكشف الشخص الصاد بذكر الهيئة التى كان عليها ذلك الشخص عند قيامه بعملية الصد عن هذا الدين منها قوله تعالى : «انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر

ثم نظر ثم عبس وبسر ثم ادبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الاقول البشر سأصليه سقر .»

روى ان زعماء قريش قد اجتمعوا الى الوليد بن المغيرة يطلبون منه ان يقول فى القرآن كلاماً ليصرف الناس عنه فى الموسم وبعد مداولة ومناقشة ومحاولة استقر رأيه على ان يصف القرآن بانه سحر بيان وانه من كلام البشر . فنزلت الآيات لتكشف ما خططه الوليد فى هذا الاجتماع وتذكر الهيئة التى كان عليها عند ما كان يقوم بالتخطيط لصد الناس عن السماع لهذا القرآن الكريم .

وهكذا فاننا نجد ان الآيات التى كانت تكشف مخططات بعض زعماء قريش كانت تذكر بعضهم باسمه الصريح وتذكر بعضهم بذكر الصفات التى اشتهروا بها وتذكر بعضهم بذكر الهيئة التى كانوا عليها عند قيامهم بالصد .

اما الآيات التى جاءت لتضرب بعض العلاقات الفاسدة والتى كانت موجودة فى مكة . منها .

قوله تعالى : ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون الا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين». وقال تعالى «واذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتات».

وقوله تعالى : «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا

تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ اشده واو فوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذاقربى وبعهد الله او فوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون .»

وهكذا فاننا نجد ان معظم الآيات المكية كانت تنزل لمعالجة هذه الامور الاربعة وقد اعطت الآيات كل واحد من هذه الامور اهتماما بقدر ماله من الاهمية .

فأمر كشف العقائد الباطلة ونقضها وبيان ما فيها من زيف وتضليل وامر بيان ما يجب على الانسان اعتقاده من العقائد . هما الأمران اللذان يتصلان بعلاقة الانسان بخالقه وهذه العلاقة هى الاساس لباقى العلاقات فاذا ما وضحت علاقة الانسان بخالقه تمام الوضوح ، واذا ما نقيت من كل شائبة فان باقى العلاقات يسهل على الانسان ادراكها ويسهل عليه تحديدها حسب ما تمليه عليه علاقته بخالقه . . . ولهذا نجد ان الآيات القرآنية قد أعطت هذه العلاقة الاهتمام الزائد . وذلك لما لها من الأهمية والله اعلم .

كان هذا هو المسار العام الذى سار عليه المبدأ الاسلامى فى مكة المكرمة قبل هجرة الرسول محمد ﷺ الى المدينة المنورة .

اما بعد الهجرة فقد اخذ المبدأ الاسلامى مساراً جديداً فى المدينة فهو الى جانب استمراره فى معالجة الامور الاربعة التى كان يوليها اهتماماً فى مكة فقد اضاف اليها معالجات اخرى . فقد اخذ

يضع الاسس والنظم التى يجب ان تسير عليها الدولة الاسلامية فحدد علاقة الافراد مع الدولة وحدد علاقة الدولة مع غيرها من الدول كما حدد نظام الاسرة ونظام الثروة ونظام العلاقات العامة وقد كان للحديث الشريف الحظ الوافر فى بيان هذه الاسس وتلك النظم فنزلت آيات الاحكام لتوضح الاحكام الشرعية ولتبين طريقة تنفيذها .

وبهذا تكون عقيدة المبدإ الاسلامى قد ولدت فى مكة وكانت ولادتها عن طريق الوحى وقد بنيت على .

١- الايمان بوجود خالق لهذا الكون والانسان والحياة ، وهو الله تعالى .

٢- الايمان بان القرآن هو كلام الله قطعا وانه شرعه الى خلقه وانه المعجزة التى ايد بها صدق رسالة رسوله محمد ﷺ وخلد فيه جميع معجزات الرسل الذين ذكر القرآن معجزاتهم .

٣- الايمان بان محمدا رسول الله ﷺ ارسله الله للناس كافة .

٤- الايمان باليوم الآخر وان الانسان سيسأل عن اعماله فى هذه الحياة ان خيراً فخير وان شراً فشر وقد اضيفت الى هذه الامور امور اخرى بعد الهجرة وهى .

(أ) الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله قال تعالى : «آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمومنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير .»

(ب) حددت العلاقات ووضعت نظم الحياة التى يجب ان تسير عليها الانسانية .

(ج) بينت طريقة تنفيذ هذه النظم فى الحياة .

هذا هو المبدأ الاسلامى بعقيدته ونظامه وهو مبدأ من عند خالق الانسان وليس من وضع الانسان نفسه ولهذا كان هو المبدأ الصحيح وان ما عداه من المبادىء التى وضعها الانسان لا تكون صحيحة مهما كان شانها .

مولد المبدإ الديمقراطى الرأسمالى

لقد ارسل الله تعالى السيد المسيح عليه السلام الى بنى اسرائيل فآمن به خيارهم وكفر به شرارهم قال تعالى : «واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين .»

وقال تعالى : «يا ايها الذين آمنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحوارين من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين .»

لقد كان حواريو السيد المسيح عليه السلام من اشد الناس تمسكاً بما جاءهم به السيد المسيح عليه السلام وكانوا من اشد الناس ثباتا على الحق وقوة على الصبر وتحمل الاذى فى سبيل هذا الحق الذى تمسكوا به حتى انهم صاروا مضرب المثل فى ذلك ، ولكن بعد فترة اتجهت الامة المسيحية الى المناداة بالتثليث وبدلا من قانون الثواب والعقاب الذى جاء به السيد المسيح والذى جاءت به جميع الانبياء والرسل ، جعلوا من الكفارة عقيدة اساسية لهم واقاموا اساس المسيحية على العقيدتين «التثليث والكفارة» ومن لا يؤمن بهما لا يمكن ان يعد مسيحيا او نصرانيا طبقا لقانون جميع

الكنائس. ولكن كيف حصل هذا التحريف فى دعوة السيد المسيح عليه السلام؟ ذكر لنا الشيخ محمد منظور نعمانى «كبير علماءالهند» فى كتابه «الثورة الايرانية فى ميزان الاسلام» نقلا عن كتاب «اظهار الحق» لرحمة الله هندى كيرانوى. ترجمة الدكتور سمير عبدالحميد ابراهيم ما نصه (ومن خلال هذه القراءآت الجادة لتاريخ المسيحية نعرف ان الله تعالى قد ارسل عيسى عليه السلام نبياً ورسولا وقدم المسيح عليه السلام ـ نفسه لامته «بنى اسرائيل» كنبى ورسول وبلغهم رسالة الله وعرض عليهم المعجزات البينات التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم . وفى البداية قال علماء امته وزعماؤها الدينيون انه مدع للنبوة ساحر كذاب وانه طبقا لشريعة اليهود ملعون وواجب القتل فآذوه واذلوه ثم قدموه الى محكمتهم الدينية فحكمت عليه بالاعدام صلباًوتم التصديق على تنفيذ الحكم بالاعدام من قبل الحاكم الرومانى وذلك طبقا لقانون الحكومة الرومانية ـ التى كانت تمتلك السلطة فى ذلك الوقت وتم صلب المسيح. وطبقا للقاعدة والتقاليد الرائجة دفنت الجثة واطمأن الناس الى ما فعلوا ، فقد قضوا على مدع النبوة «تعلق» ومن المعروف ان العالم المسيحى قد صدق كلام اليهود «اعداء المسيح» وانه قد اعدم صلباً . وهذا قائم على اساس عقيدة الكفارة وقد ثبت ايضاح هذا فى الا ناجيل التى ثبت تحريفها بالدلائل القاطعة ـ الا ان القرآن يوكد فشل خطة اليهود لصلب المسيح فقد «رفعه الله الى السماء وقد شبه لهم . . .» ثم يتابع الشيخ محمد منظور فيقول الا ان حوارى المسيح المخلصين صادقى العهد قاموا بحمل دعوته وهديه إلى المناطق البعيدة واخذوا يرسلون تلاميذهم

هنا وهناك ونجحوا فى ابلاغ الدعوة بجهودهم المخلصة وتضحياتهم وظهرت بوادر نجاحهم حتى كادت تكلل بالنجاح وفجأة وقعت حادثة غير عادية اذ قام احد علماء اليهود المشهورين فى ذلك الوقت ويدعى «ساؤل» وكان عدواً لدوداً للمسيحية. قام بايذاء كل من يقبل الدعوة المسيحية الخالصة ايذاءاً شديداً بكل الطرق الممكنة ، وكان يسلط عليهم الآخرين ، وكانت هذه هوايته المحببة إليه - قام هذا الرجل بخطة مفاجئة وبطريقة يمكن ان نقول عنها «دراماتيكية» - واعلن انه ذاهب الى دمشق للكفاح والجهاد ضد المسيحية والمسيحين يقول عن نفسه. وفى الطريق وعند مكان معين ظهر نور يصل ما بين السماء والارض وسمعت صوت المسيح قادماً من السماء يخاطبنى باللغة العبرية يا ساؤل ! لماذا تؤذينى ؟ ثم دعانى إلى الايمان والى خدمة دينه واوصانى بذلك فآمنت به بعد ان رايت هذه المعجزة. وهكذا اوقفت نفسى لخدمة هذا الدين والدعوة اليه» وغير الرجل اسمه فلم يعد يدعى ساؤل بل اصبح يدعى بولوس (پولس) وذهب (بولس) الى حوارى المسيح فذكر لهم هذه المكاشفة وما اصابه من مشاهدة وانقلاب ، الا أن الحوارين لم يكونوا على استعداد لتصديق ما قال بعد ما رأوا من إيذائه وظلمه للمومنين وشكوا فى قوله. الا الحوارى برنابة «هو حوارى جليل» صدق قول ساؤل واقنع بقية الحوارين بذلك. وهكذا انضم ساؤل الى بقية الحوارين وصار منهم واتبع سلوكا وطريقة جعلت عامة المسيحين يعدونه زعيماً مسيحيا . وبهذا حقق مكانة عظيمة غير عادية واصبح رائداً نموذجاً يحتذى بين العامة وبعد ذلك بدء عملية التخريب

والتحريف فى الدين المسيحى (وهو ما كان يهدف اليه ويقصده) وقد فهم بذكائه الخارق وفراسته ان اسهل طريق لا بعاد المسيحيين عن اصل الدين الذى جاء به المسيح هو ان يزيد من شأن المسيح الى حد كبير يجعله ابن الله اوشريكاً لله او الله نفسه. اما عن حقيقة واقعة صلب المسيح فقد قال ان المسيح قد صلب ليكفر عن سيئات جميع الناس الذين آمنوا به وسيتحمل عنهم العذاب الذى كاد ان يصيبهم ويصبح وسيلة الى النجاة لأنه تكفير عن كل ما ارتكبوه من ذنوب .

ومن هنا بدء عمله وقد اصاب سهمه الهدف تماماً وبدأت عقيدة الوهية المسيح ، وان المسيح ابن الله ، والتثليث والكفارة تنتشر بسرعة بين عامة المسيحيين لدرجة ان حوارى المسيح ممن شهدوا تلك الفترة مع تلاميذهم المتمسكين بالعقيدة الصحيحة حاولوا ان يقيموا الامة المسيحية على الدين المسيحى الاصيل وان يحفظوهم من عقائد الشرك والضلال الا ان محاولاتهم الاصلاحية لم تنجح كثيراً ولم يمض على ظهور المسيح قرن من الزمن حتى ترك عامة المسيحيين دين المسيح واتخذوا من دين الشرك الجديد الذى اتى به (بوليس) تحت عنوان المسيحية دينا لهم .

وهكذا اتخذ المسيحيون فى معظمهم هذا الدين الجديد دينالهم واعترفوا بالتثليث والكفارة عقيدة اساسية للمسيحية» انتهى كلام الشيخ . كانت اوربا تحكم من قبل ملوك الروم وكانوا قبل مبعث السيد المسيح عليه السلام يعبدون الكواكب السياره السبع وكانوا يصلون الى القطب الشمالى وكان الصراع على السلطة بين ملوكها

لا ينقطع.وبعد مبعث السيد المسيح بحوالى ثلاثمائة سنة تقريباً اراد احد ملوك الروم ان يستغل اتباع السيد المسيح لما كان لهم من سمعة . فاجتمع بهم وطلب منهم القيصر تعديل بعض ما جاء فى الانجيل حتى تتمشى هذه الديانة مع أهوائه ، فرفضوا ذلك واختلفوا اختلافا كبيراً ثم اتفق مع عدد منهم ممن قددب الوهن الى نفوسهم فاجابوه الى طلبه . وبعد ذلك تنصر القيصر وتنصرت لتنصره اوربا بكاملها .

ذكر لنا ابن كثير فى تفسيره لاول سورة الروم فقال فكان اول من دخل فى دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين ابن قسطنطين وامه مريم الهلانية الغندقانية من ارض حران كانت قد تنصرت قبله فدعته الى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفاً فتابعها (يقال تقية) واجتمعت به النصارى وتناظروا فى زمانه مع عبدالله ابن ديوس واختلفوا اختلافا كثيراً منتشراً متشتتاً لا ينضبط الا انه اتفق مع جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفاً فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهى التى يسمونها الامانة الكبيرة وانما هى الخيانة الحقيرة ووضعوا له القوانين بعنوان كتب الاحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون اليه وغيروا دين المسيح عليه السلام وزادوافيه ونقصوا منه وصلوا الى المشرق واعتاضوا عن السبت بالاحد وعبدوا الصليب واحلوا الخنزير واتخذوا اعياداً احدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعانين وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنه ثم الاساقفة والقساقسة والشمامسة وابتدعوا الرهبانية وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد واسس المدينة

المنسوبة اليه وهى القسطنطنية يقال انه بنى فى ايامه اثنى عشر ألف كنيسة (انتهى) .

بعد تنصر الملك قسطنطين واتباعه اخذ شأن الكنيسة يقوى ويشتد واصبح لرجال الدين شأن عظيم فى اوربا حتى انهم صاروا محط انظار الناس . اخذ الامر يشتد بعداً عن تعاليم السيد المسيح يوماً بعد يوم واخذ تجار الإديان يتسللون الى الكنيسة ، لاحبا بها بل طمعا فيما لها من سمعة بين الناس آنذاك وليحققوا عن طريق انتمائهم اليها ما يريدون من مال وجاه ، وسلطة ، وقد كان لهم ما أرادوا ثم اخذوا يتاجرون باسم الدين ويستغلون السذج من الناس حتى ان الامر قد وصل بهم الى ان يبيعوا قطعا او غرفا فى الجنة الى الناس السذج ، وكانوا يعطون لمن يبيعونه قطعة ارض اوغرفة او غرفاً فى الجنة صكاً ليثبت به احقيته فيما اشتراه . كانت شعوب اوربا بجملتها تعيش فى ظلام فكرى دامس فكانوا يخدعون بما يروجه لهم تجار الاديان ممن استطاعوا ان يدخلوا الكنيسة حتى يكسبوا من انتمائهم اليها شيئاً من القداسة. غير أنه مع وجود هذا الظلام الفكرى الدامس فقد برز بعض المفكرين والفلاسفة فى اوربا وكان يسوء هؤلاء المفكرين والفلاسفة ما يجدون عليه اوربا من جهل وما عليه رجال الكنيسة من استغلال لعقول السذج من الناس .

اخذ هؤلاء الفلاسفة والمفكرون يعملون على توعية الشعوب والامم فى اوربا واخذوا يكشفون للناس ما يقوم به رجال الكنيسة من اعمال تتنافى وكرامة الانسان الذى فضله الله على جميع خلقه وكان من الطبيعى ان يتصدى لهولاء الفلاسفة رجال الكنيسة فاخذوا يلاحقونهم

فى كل مكان ليحولوا دون انتشار افكارهم بين الناس، وكانوا يوقعون بهم اشد العقوبات بما لهم من سلطان ونفوذ، وكانت العقوبات تصل الى حد احراق المفكر أوالفيلسوف بالنار علناً فى ساحة البلدة . بدأ الصراع بين رجال الدين من جهة وبين رجال الفكر الاوربى من جهة ثانية، وكان المفكرون يكشفون للناس عن حقيقة اعمال رجال الدين، وكانوا يقيمون البراهين العقلية على صحة اقوالهم، وكان رجال الدين يلاحقون المفكرين ليحولوا بين ما يقولونه للناس وبين عقول الناس، كان الانسان الأوربى فى صراع مع نفسه وفى حيرة وضياع، فهو لم يستطع ان يجمع بين ما يقنع به عقله - وهو ما يقوله رجال الفكر - وبين ما يشبع به غريزة التدين عنده - وهو كل ما له صلة بالكنيسة . فالكنيسة من حيث هى كنيسة كانت تشبع عنده غريزة التدين، وكان لا يعكر هذا الأشباع الاما كان يقوم به بعض رجال الدين من اعمال تتنافى وكرامة العقل الإنسانى . واما رجال الفكر فانهم كانوا يملؤن عقل الانسان الاوربى بالقناعات على صدق ما يقولونه له، فكانوا يبرهنون بالادلة العقلية القاطعة على زيف ما كان يقوم به بعض رجال الكنيسة من اعمال. اخذ عدد المفكرين يزداد فى اوربا، واخذ اتباعهم يتكاثرون بسرعة، وصار الناس يدركون اخطاء رجال الدين وما يقومون به من اعمال ، واخذت تتكشف عوار هذه الأعمال للناس، ولكن مع هذا كله ، فان الأنسان الاوربى لم يستطع ان ينزع من نفسه حب تقديس الكنيسة، وحب تقديس كل ما يتصل بها، وذلك لما لها من علاقة بغريزة التدين عنده ، وكان فى نفس الوقت لا يستطيع ان يرفض قناعاته بما يقوله رجال الفكر الاوربى له .

دارت صراعات دامية بين رجال الفكر واتباعهم من جهة /وذلك بعد ان قويت شوكتهم وكثر انصارهم/ وبين رجال الدين من جهة ثانية - وذلك بعد ان قل انصارهم وذهبت هيبتهم - وفى خضم هذا الصراع الدامى ولد المبدأ الديمقراطى الرأسمالى ، ولد كردة فعل لما كان يقوم به بعض رجال الدين الاوربى من اعمال تحط من قدر العقل الانسانى الذى كرمه الله به .

ولد المبدأ الديمقراطى فكانت ولادته الى جانب كونها كرده فعل لما كان يقوم به بعض رجال الكنيسة من عمل فهى كذلك كانت ولادة مبنية على الحل الوسط ، فما هو الحل الوسط يا ترى .؟!

﴿ الحل الوسط ﴾

لقد عرفنا من خلال استعراضنا للامور التى كانت سبباً فى ولادة المبدإ الديمقراطى الرأسمالى ، وان من اهم هذه الاسباب هو ما كان يقوم به رجال الدين من اعمال تتنا فى والكرامة الانسانية ، وقد ادى ذلك الى وجود صراع بين رجال الفكر من جهة وبين رجال الدين من جهة اخرى حتى تغلب رجال الفكر على رجال الدين، ثم انه قد نشب صراع آخر بين رجال الفكر انفسهم، فانهم وان كانوا يرون ان رجال الدين قد اساؤوا ، الا ان منهم من انكر وجود الدين بالكلية، ومنهم من اعترف بوجود الدين وانما كان ينكر على رجال الدين ماكانوا يقومون به من اعمال، وقد اشتد الخلاف بين هولاء وهولاء من المفكرين ثم استقرالراى عندهم على ما يلى .

(١) عدم البحث فى وجود الدين من حيث انكاره او الاعتراف به .

(ب) ان تقصر اعمال رجال الدين على الطقوس الدينية وداخل الكنيسة لمن اراد ذلك بدون اكراه .

(ج) ان يتولى رجال السياسة او رجال الفكر امور تحديد علاقات الناس وامور تنظيم حياتهم . هذه هى الاسس التى اتفق عليها اصحاب المبدإ الديمقراطى الرأسمالى ، وقد سميت هذه الأسس التى اتفق عليها بالحل الوسط وقد نتج عنها عقيدة المبدإ الرأسمالى وهى فصل الدين عن الحياة او فصل الدين عن السياسة . ان الناظر الى هذا الحل الوسط والذى قامت عليه عقيدة المبدإ الديمقراطى الرأسمالى يجد ان واقعه ليس بحل وان سمى حلا ، وانما هو فى واقعه ترك للحل او اعراض عنه ، وذلك لان الحل فى مسائل النفى والاثبات أو فى المسائل الاعتقادية لا يتاتى من ترك البحث فيه ، او من الاعراض عنه ، كما انه لا يتاتى من سكوت جميع الاطراف عن البحث فيه وانما الحل فى مثل هذه الأمور انما يكون فى البحث والتنقيب والاستقصاء حتى الوصول الى الحقيقة . فالاعتراف بوجود خالق لهذا الكون والانسان والحياة او انكار وجوده هو من الامور الاعتقادية، وتحديد علاقات الخلق وتنظيم شوؤن حياتهم (فهل هى حق لله وحده ام انها حق للانسان ولا علاقة للخالق بها،) هى ايضاً من الامور الاعتقادية ، فمثل هذه الامور لا تحل بالسكوت عنها ولا بالمساومة عليها. ثم يسمى هذا السكوت وتلك المساومة حلا، خاصة وان هذا الحل قد بنيت عليه عقيدة مبدإ للامة لتحدد علاقاتها ولتنظم شوؤن حياتها بحسبها .

ان العقل السوى يحتم ان ياخذ كل أمر من البحث بقدر ما له من الاهمية، وعلى هذا فانه يجب ان ياخذ البحث فى امور العقائد غاية ما يمكن من الجهد الفكرى . فاذا توصل العقل بعد بذل غاية الجهد الفكرى . وبحسب المعطيات العقلية القاطعة الى اثبات وجود خالق لهذا الكون والانسان والحياة. وكان ما توصل اليه العقل حسب تلك المعطيات مطابقا لواقع ما توصل اليه تمام المطابقة ، عندها وجب الاعتقاد بوجود ذلك الخالق ، وان كل ما فى الكون من انسان وحياة انما تستند فى وجودها الى ذلك الخالق الازلى القائم بنفسه المستغنى عن غيره ، وانه هو وحده خالق الانسان والاشياء ، وان له وحده ان يحدد العلاقات ، وان ينظم شوؤن خلقة، قال تعالى «الا له الخلق والامر تبارك الله احسن الخالقين» واما اذا توصل العقل بعد بذل غاية الجهد الفكرى ، الى ادراك عدم وجود خالق لهذا الكون والانسان والحياة، وان الكون بما فيه من انسان وحياة مستغنى بنفسه عن غيره وكان هذا التوصل مطابق لواقع ما عليه الكون والانسان والحياة تمام المطابقة، عندها وجب انكار وجود الخالق، وذلك لان الادلة العقلية القاطعة والآثار لم تدل على وجوده ، وعندها يكون من حق الانسان ان يحدد علاقاته كما يشاء ، وان ينظم شوؤن حياته كما يريد، هذا هو واقع الاعتراف بوجود الخالق او بانكار وجوده، فهو بحث عقلى ناجم عن قناعة عقلية جازمة، وهذه القناعة الجازمة مطابقة للواقع تمام المطابقة عن دليل .

هذه هى الطريقة التى يحتم العقل السير عليها للوصول الى ادراك وجود الخالق أو الى انكار وجوده، وهذه هى الخطوات التى

يفرضها العقل فى مثل هذا البحث . واما السكوت عن البحث او الاعراض عنه فانه لا يوصل إلى حل أبداً فى مثل هذه الأمور وذلك لأن الحل انما يأتى عن طريق البحث، فاذا لم يوجد بحث فى مثل هذه الأمور، فانه لا يوجد لها حل ، وتسمية ما توصل اليه مفكروا وفلاسفة المبدإ الديمقراطى الرأسمالى حلا . انما كان ذلك من باب التضليل وليس من باب الحقيقة .

وبهذا يظهر لنا مقدار ما فى الحل الوسط من مخالفة للواقع الذى يجب ان تحل هذه الامور بحسبه .

﴿عقيدة المبدإ الديمقراطى الرأسمالى﴾

لقد تقدم لنا ان عقيدة المبدإ الديمقراطى الرأسمالى هى فصل الدين عن الدولة او فصل الدين عن الحياة .

ان الناظر فى هذه العقيدة يجد انها قد تضمنت امرين اثنين وهما .

(ا) الاعتراف الضمنى بوجود خالق لهذا الكون والانسان والحياة ، اذ ان كلمة الدين تعنى علاقة الخلق بالخالق الديان وان الخلق كلهم مدينون للخالق الديان وان حسابهم سيكون يوم يطلب الديان دينه .

(ب) تضمنت حكما صادراً عن الأنسان المخلوق ينص هذا الحكم على ان لاعلاقة للخالق فى تنظيم شوؤن حياة خلقه وان الانسان هو الذى له حق تنظيم هذه الحياة وتحديد العلاقات فيها .

هذا ملخص ما تضمنته هذه العقيدة .

ان من الأمور المسلم بها بداهة ان العلاقة اذا كانت بين طرفين متساويين فانه لا يحق لاحد الاطراف ان ينفرد بتحديد هذه العلاقة دون الرجوع الى الطرف الثانى واخذ رأيه . وهذا كله فى تحديد علاقة بين طرفين متساويين فكيف يكون الحال اذا كانت هذه العلاقة بين طرفين ليس بينهما أى شيء من التساوى ؟!!

طرفان احدهما هو الخالق المالك لكل شيء وثانيهما هو الأنسان المخلوق المملوك لذلك الخالق نفسه .

فهل يصح عقلا ان يأتى الطرف المخلوق المملوك فيحدد صلاحية الخالق المالك ؟!

وهل يصح عقلا ان يأتى الطرف المخلوق المهلوك فيقول للخالق المالك انت لا علاقة لك فى شوؤن خلقك ؟!!

وهل يصح عقلا ان يأتى الطرف المخلوق المملوك فيصدر حكماً من طرف واحد دون الرجوع الى معرفة ما يريده الطرف الثانى وهو الخالق المالك ؟!

اقول : ان مثل هذا الحكم لا يمكن ان يكون قد صدر عن تفكير وروية وانما هو حكم ناجم عن ردة فعل أفقدت صواب مفكرى الغرب بسبب ما كان يقوم به بعض رجال الكنيسة من اعمال تجعل الانسان يفقد صوابه .

ان من اهم ما كان يجب على مفكرى الغرب ـ وهم يحاولون انقاذ الانسانية من وهدة الانحطاط الفكرى ـ ان يعطوا الامر من الاهتمام بقدر ما له من الاهمية .

فكان الواجب عليهم قبل ان يصدروا حكمهم بفصل الدين عن الدولة ان يعرفوا الامور التالية .

اولا : هل كانت رسالة السيد المسيح رسالة عامة لكل الناس ؟! أم أنها كانت رسالة خاصة الى بنى اسرائيل ؟!

ثانيا : هل الديانة النصرانية التى كانت سائدة فى اوربا هى نفس التعاليم التى جاء بها السيد المسيح عليه السلام ؟! ام انها قد حرفت كما اراد لها ان تحرف -ساؤل- ثم حرفت كما اراد لها ان تحرف القيصر ؟!!

ثالثاً : هل كانت رسالة السيد المسيح عليه السلام رسالة خالدة الاحكام ؟! ام أنها كانت رسالة جاءت باحكام خاصة لتعالج وضعاً خاصاً لاناس معينين وفى زمن معين ومحدد ؟!

رابعاً : هل ما كان يقوم به رجال الكنيسة فى اوربا باسم الدين من اعمال هى حسب تعاليم السيد المسيح عليه السلام ؟!! أم انهم انما كانوا يتاجرون باسم الدين فكانوا يقومون باعمال ليست من الدين فى شىء ؟!!

خامساً : هل تنظيم علاقات الخلق هى حق للخالق وحده ؟! ام انها حق للمخلوق ولا علاقة للخالق بها ؟!!

أقول : لو ان فلاسفة الغرب ومفكريه قد تفهموا هذه الامور الخمس فى ذلك العصر لما وقعوا فيما وقعوا فيه من الاخطاء ، ولما تجرءوا على اصدار حكمهم هذا والقاضى بفصل الدين عن الحياة، والذى اقل ما يقال فيه انه اعتداء على أحقية الخالق فى خلقه، وتحديد لسلطة الخالق المطلقة .

ونحن اذ نكتب للانسان الذى لا يزال مخدوعاً بالديمقراطية وبالنظام الديمقراطى . . . نجد أنه من الواجب علينا ان نوضح له هذه الامور الخمس فنقول وبالله التوفيق .

اولا : بالنسبة الى رسالة السيد المسيح فانها لم تكن رسالة عامة وانما كانت رسالة خاصة الى بنى اسرائيل .

قال تعالى : وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد فلما جاءهم بالبيِّنات قالوا هذا سحر مبين .

وقال تعال : «يا ايها الذين آمنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من انصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين .»

فهذه الآيات تدل دلالة قاطعة على ان السيد المسيح عليه السلام انما ارسل الى بنى اسرائيل خاصة فآمنت به طائفة وهى خيارهم وكفرت به طائفة وهى شرارهم .

ثانياً : بالنسبة الى الديانة التى كانت سائدة فى اوربا آنذاك فانها لم تكن حسب التعاليم التى جاء بها السيد المسيح عليه السلام، وانما هى ديانة محرفة، فقد حرف فيها «ساؤل» اليهودى ما شاء له التحريف فاضفى على السيد المسيح اوصاف الألوهية فقال عنه هو الله ، وتارة قال هو ابن الله . . . والقرآن ينص على ان من قال ان الله هو المسيح

فانه قد كفر ، قال تعالى : «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن فى الارض جميعاً ولله ملك السموات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير» ثم ان من معجزات السيد المسيح عليه السلام تكلمه فى المهد وهو حديث الولادة فكان اول كلام قاله ـ انى عبدالله ـ قال تعالى ذاكراً لنا قصه السيدة مريم عليها السلام : «واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من اهلها مكانا شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فارسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا قالت انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا قالت انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان امراً مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . فأجاها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذه وكنت نسياً منسيا فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر احداً فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا واتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا اخت هارون ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا قال انى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا .»

وبعد ان حرف فيها «سأول» ما خرف جاء من بعده اتباعه وحرفوا ـ رسالة السيد المسيح للقيصر حتى تتمشى مع اهوائه ورغباته

مقابل عرض من المال او الجاه . قال تعالى عنهم «وإذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون .»

ثالثا : بالنسبة الى واقع رسالة السيد المسيح عليه السلام فانها لم تكن رسالة خالدة الاحكام وانما هى رسالة جاءت لتعالج بعض الأحكام التى جاءت فى التوراة، والتى ثقلت على بنى اسرائيل بسبب تعنتهم على موسى عليه السلام قال تعالى ذاكراً لنا ما قاله السيد المسيح لبنى اسرائيل: «ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون .»

وبعد نزول القرآن فان الأحكام التى نزلت قبله قد نسخت به، قال تعالى : «وليحكم أهل الانجيل . بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق .

فقد بينت هذه الآيات ان الواجب على اتباع السيد المسيح ان يحكموا بالانجيل وان يتركوا الاحكام التى فى التوراة والتى نسخها الانجيل، ثم ذكرت الآيات ان القرآن الكريم قد نسخ جميع الأحكام التى جاءت فى الكتب السماوية السابقة له وجعلت وجوب الحكم منحصراً بما جاء فى القرآن الكريم. فمعنى مهيمنا عليه اى ناسخا له.

رابعاً : بالنسبة الى ما كان يقوم به رجال الكنيسة من اعمال باسم الدين فانه لا توجد اى علاقة بينها وبين الدين. قال تعالى : «اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا الا ليعبدوا الهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون .»

لقد كان عدى بن حاتم الطاىء قبل اسلامه على الديانة النصرانية، وبعد اسلامه سمع هذه الآيات فقال يا رسول الله والله ما عبدناهم ! فقال له رسول الله ﷺ : الم يحلوا لكم الحرام فتحلو نه ويحرموا عليكم الحلال فتحرمونه قال بلى يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ فتلك عبادتهم .

غير انه لم يكن ذلك شأن جميع الاحبار والرهبان ، فقد كان منهم من يعمل مثل ذلك العمل ومنهم من لا يعمل ذلك، قال تعالى : «يا ايها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان لياكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .» فكلمة ـ كثيراً ـ هنا تعنى انه ليس كل راهب وكل حبر كان يفعل مثل ذلك الفعل بل ان اكثرهم كان يفعل فيأكل اموال الناس بالباطل ويصد عن سبيل الله وان القليل منهم من كان يتجنب مثل هذا العمل . واغلب الظن ان الذين كانوا يعملون ذلك العمل هم الـذين دخلوا الكنيسة من اجل الاتجار بسمعتها او انهم اتباع «ساؤل» فكانوا يحرفون تعاليم السيد المسيح عليه السلام مقابل مقدار معين من المال أو ارضاءاً لسلطان .

قال تعالى : «فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون .»

وقد وصل الحال بهؤلاء المتاجرين بالدين الى ان يبيعوا بعض الناس قطعا أو غرفاً فى الجنة .

خامساً : بالنسبة الى امر تحديد العلاقات وتنظيم الاشباعات للانسان فانما هى حق للخالق وحده .

قال تعالى : «الا له خلق والامر تبارك الله احسن الخالقين .» وأى تنظيم لعلاقات واشباعات الانسان بغير نظام الخالق يعتبر نظام كفر، مهما كان نوعه ، ومهما كان اسمه ، وان أى جماعه او اى فرد يقدم على وضع نظام للخلق فانما يكون متعدياً لحدود الله معتدياً على صلاحياته تعالى .

قال تعالى : تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدى حدود الله فقد ظلمه نفسه .»

هذا هو واقع بيان هذه الامور الخمس التى لو وعاها مفكروا وفلاسفة الغرب لما وقعوا فيما وقعوا فيه من الخطإ .

وقد يقال : انك انما تستشهد بآيات من القرآن، وباحاديث عن الرسول محمد ﷺ، والقرآن، والحديث هما مما جاء بهما محمد ﷺ، ومحمد لم يعترف جميع الناس برسالته، فهناك اناس قد آمنوا بكل ما جاء به محمد ﷺ ، وهناك اناس لم يعترفوا برسالته مطلقاً، وهناك اناس اعترفوا برسالته ولكنهم قالوا انها رسالة خاصة للعرب فقط .

ولهذا فانه لا يؤخذ القول الذى جاء به محمد ﷺ دليلا الا على من آمن برسالته فقط .

والجواب على ذلك هو : ان اثبات رسالة أى رسول او نفيها لا يكون بحسب قول من اعترف من الناس بها ولا بحسب انكار

من لم يؤمن بها، وانما يكون بحسب الدليل القاطع على صدق رسالة الرسول، والدليل القاطع هو المعجزة التى يأتى بها الرسول ذاته، فعيسى عليه السلام قد ارسل الى بنى اسرائيل فآمن به خيارهم وكفر به شرارهم .

فرسالة السيد المسيح عليه السلام لم تثبت بقول من آمن به من بنى اسرائيل، كما انها لم تنف بقول من كفر به من بنى اسرائيل وانما ثبتت بالمعجزات التى ايد الله بها صدق رسالته، فاذا جاء الرسول ثم ايد بالمعجزة فقد ثبتت رسالته، وبعد ثبوت رسالته يكون قوله هو الحكم، فاذا قال انى انما ارسلت الى قومى فيكونُ هو رسول الى قومه فقط . واذا قال انى ارسلت الى الناس كافة فيكون هو رسول الى الناس كافة، ولا يجوز لأحد بعد ثبوت رسالة الرسول ان يحدد من عند نفسه هوية الرسول وهويةما أرسل به وهوية من ارسل إليهم. وعليه فانه بعد ثبوت رسالة سيدنا محمد ﷺ بالمعجزات واهمها هذا القرآن الكريم فلا يقال ان كلامه حجة على من آمن به فقط وذلك لانه ارسل الى الناس كافة كما اخبرنا الله عنه فيكون جميع الناس مكلفين بالعمل بما جاءهم به ، ويكون كلامه دليلا قائما وملزماً الى جميع من ارسل اليهم ، ولهذا كانت الآيات القرآنية والاحاديث النبوية حجة على جميع الناس، وليس لأحد حق القول فى انها حجة على من آمن به فقط .

وقد يقال ان القرآن الذى هو معجزة محمد عليه الصلاة والسلام قد اعجز العرب عن الاتيان بمثله فتكون رسالة من ارسل به هى خاصة بالعرب الذين عجزوا عن الاتيان بمثله .

والجواب على ذلك: هو ان القرآن قد تحدى الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولا يزال القرآن متحدياً لهم، فهو لم يتحدى العرب فقط وانما تحدى جميع الخلق ولا يزال متحديا، واما انه قد عجز العرب عن الاتيان بمثله فذلك لان القرآن هو عربي اللغة والإسلوب فاذا عجز بلغاء العرب وفصحاؤها عن الاتيان بمثله فان العجز واقع على غيرهم من من لايعرف اللغة العربية من باب اولى.

فمثلا : عندما ارسل الله موسى الى فرعون وايده بالمعجزات ومنها العصا ، فلما جاء موسى عليه السلام الى فرعون واظهر له المعجزة ظن فرعون ان ذلك سحر فجمع اهل الاختصاص من السحرة ليكشفوا له حقيقة ما جاء به موسى، فلما عجز السحرة وغلبوا وآمنوا لانهم علموا ان ذلك ليس سحراً، فقد قامت الحجة على فرعون، وذلك لأن التحدى شاملا له من موسى عليه السلام، فبعد عجز السحرة فلا يحق لفرعون ان يقول انما العجز وقع على السحرة فقط وذلك لان العجز واقع عليه من باب أولى لانه لم يستعن بالسحرة الا بعد عجزه هو .

هذا هو بيان موجز لهذه الامور الخمس والتي لو فكر فلاسفة الغرب ومفكريه فيها تفكيراً صحيحاً لما وقعوا فيما وقعوا به من اخطاء ادت بهم الى ان يقرروا انه لاعلاقة للخالق فى تنظيم شوؤن خلقه والتى عبروا عنها بـ «بفصل الدين عن الحياة او فصل الدين عن الدولة.» ثم جعلوها عقيدة لمبدئهم «المبدإ الديمقراطى الرأسمالى.»

﴿النظام الديمقراطى الراسمالى﴾

النظام الديمقراطى هو من انظمة الحكم القديمة . فكلمة

democratic هى كلمة اغريقيه ، وقد عرف النظام الديمقراطى بأنه نظام اجتماعى يؤكد قيمة الفرد وكرامة الشخصية الانسانية ويقوم على اساس مشاركة اعضاء الجماعة فى ادارة شوؤنها .

وقد تكون الديمقراطية سياسية democracy political وهى ان يحكم الناس انفسهم على اساس من الحرية والمساواة لا تمييز بين الافراد بسبب الاصل او الجنس او الدين او اللغة ويستخدم اصطلاح الادارة الديمقراطية administration democratic للدلالة على القيادة الجماعية التى تتم بالمشورة والمشاركة مع المرؤوسين فى عملية اتخاذ القرارات .

هذا هو مجمل ما جاء فى تعريف ووصف النظام الديمقراطى، وهو فى جملته لا يخرج عن مضمون ان حكم الشعب للشعب ، فالشعب هو الذى يختار النظم والقوانين التى يريد عن طريق ممثليه. والشعب عن طريق ممثليه هو الذى يختار الحاكم ليطبق له هذه النظم والقوانين التى اختارها .

ان الذى يهمنا من هذا البحث هى أمور ثلاث وهى .

١ ـ معرفة حكم عقيدة هذا المبدإ .

٢ ـ معرفة حكم من يضع نظاماً للحياة من عنده بعد ان وضع الله نظامه لخلقه فى هذه الحياة .

٢ ـ معرفة معنى الحريات التى تولدت عن المبدإ الديمقراطى، وهل هى مطابقة لواقع ما عليه الانسان ؟

هـذه هى الامـور الثلاث هى كل مـا يهمنا فى بحث النظام الديمقراطى الرأسمالى :

الامر الاول : بالنسبة الى معرفة حكم عقيدة فصل الدين عن الحياة وكيف تمت ولادتها .

ان المتتبع لولادة هذه العقيدة يجد انها قد تولدت عن الحل الوسط الذى توصل إليه رجال الفكر ورجال الدين بعد صراع طويل دامى .

فلقد كان هناك خلاف بينهم على شكل الحكم الذى يجب ان يوضع للناس لتسير حياتهم عليه ، وكان الخلاف كذلك بين رجال الفكر انفسهم، فمنهم من أنكر وجود الدين مطلقاً ومنهم من اعترف بوجوده ولكنه أنكر ان تكون له علاقة فى الحياة .

ومن الواضح جداً ان من أنكر وجود الدين فهو كافر بلا شك وذلك لان انكار الدين قائم على انكار وجود الديان وهو الخالق سبحانه وتعالى . وانكار وجود الخالق كفر بلا شك .

واما من أنكر علاقة الدين بالحياة مع اعترافه بوجود الدين فهو كافر ايضاً، وذلك لان انكار علاقة الدين بالحياة هوانكار لعلاقة الديان وهو الخالق بهذه الحياة .

فهو تطاول على احقية الخالق فى خلقه . . . وهذا ايضاً كفر لا شك فيه .

وبهذا يظهر لنا ان عقيدة المبدإ الديمقراطى هى عقيدة كفر لا شك فيه .

الامر الثانى : بالنسبة الى حكم النظام الديمقراطى الرأسمالى .

لقد تقدم لنا ان حق تنظيم شوؤن الخلق انما هو للخالق وحده فله وحده حق تنظيم وتحديد علاقات خلقه كما يشاء وكما يريد

فاذا ما وضع الخالق نظاماً لخلقه فانه لا يجوز لأى انسان ان يعارض هذا النظام، وان كل من يعمل على تنظيم شوؤن حياة الناس بنظام من عنده يكون قد تعدى حدود الله وقد اعتدى على احقية الله فى خلقه ومن ثم فانه يكون قد ظلم نفسه قال تعالى : «وتلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدى حدود الله فقد ظلم نفسه .» وان أى نظام يوضع لتنظيم شوؤن الخلق بغير نظام الخالق فانه انما يكون نظام كفر . قال تعالى : «ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون .»

وبهذا يظهر لنا جلياً ان النظام الديمقراطى نظام كفر وذلك للاعتبارين التاليين .

١ ـ انه نظام منبثق عن عقيدة كفر وان كل ما تفرع عن عقيدة الكفر فإنه يأخذ حكمها .

٢ ـ انه نظام حكم بغير ما انزل الله وفيه اعتداء على احقية الله فى تنظيم شوؤن خلقه .

هذا هو واقع النظام الديمقراطى الرأسمالى وهذا هو حكمه .

الامر الثالث : بالنسبة للحريات فانه يجدر بنا ان نفرد لها باباً خاصا وذلك حتى يدرك الناس واقعها تمام الادراك .

﴿الحريات﴾

لقد نشأت هذه الحريات ـ بهذا الاصطلاح ـ مع نشوء ولادة المبدإ الديمقراطى الرأسمالى .

فاصبح جل اعمال الدول الرأسمالية هو المحافظة على هذه الحريات ورعايتها وحمايتها من أى اعتداء قد يقع عليها . وقد اعطيت هذه الحريات اهتماماً زائداً عند حملة هذا المبدإ . وحتى ندرك واقع هذه الحريات وواقع ما ترمز إليه فلابد لنا من معرفة ما يلى .

١ - معرفة المعنى الاصطلاحى لدلالة هذا المسمى . - الحرية - وهل يطابق معناها اللغوى .

٢ - معرفة مطابقة او عدم مطابقة هذا المعنى الاصطلاحى لواقع ما عليه الانسان .

هذا ما يجب ان ندركه حتى ندرك من خلاله واقع الحريات وما ترمز إليه اصطلاحاً عند من اصطلحوا على اطلاقها عليه .

إن كلمة حرية فى اللغة العربية قد وضعت للدلالة على ما يقابل الرق من معنى ، فيقال فلان رقيق وفلان حر . . . وفلان كان رقيقاً فصار حراً . . . هذا هو المعنى الوضعى لكلمة حر او حرية فى اللغة العربية .

اما المعنى الاصطلاحى لكلمة حرية فانه يعنى شيئاً آخر غير معناها الوضعى فى اللغة وحتى ندرك المعنى الاصطلاحى نورد بعض التعاريف التى عرفت به هذه الحرية من قبل من اصطلحوا عليها، وهذه هى بعض التعاريف .

١ - حرية الارادة : free will هى النظرية التى تقرر بأن الفرد يتمتع بحرية الاختيار فى تحديد تصرفاته وان سلوكه لا يتحدد مقدماً بالعوامل الخارجة عن ارادته .

٢ - الحرية الجنسية : free love - وهى علاقات جنسية متحررة بدون ان ترتبط بالالتزامات والمسؤوليات المتعلقة بالزواج .»

٣ - الحرية المدنية : civil liberties - وهى الحريات التى تتيح للمرء ان يعمل بوحى نفسه دون ان يتقيد بما يحظر او يضيق عليه عمله نسبياً ، وتتضمن هذه الحريات حرية القول والكتابة والنشر والعقيدة والاجتماع بدون أى رقابة .»

٤ - الحرية : freedom - وهى القدرة على الاختيار بين عدة اشياء . اى حرية التصرف والعيش والسلوك حسب توجيه الارادة العاقلة دون الاضرار بالغير «هكذا» أو دون الخضوع لأى ضغط الا ما فرضته القوانين العادلة الضرورية وواجبات الحياة الاجتماعية .

٥ - الحريات المدنية : liberties civil - وهى الحريات الشخصية الاجتماعية الناشئة عن علاقات الفرد المدينة والتى يحميها القانون من القيود فيما عدا ما يسمى الخير العام والمصلحة العامة ويقصد بها حرية الفرد فى التملك والعقيدة والرأى .

٦ - الحرية الاقتصادية - lalssez faire - وهى المذهب الذى يؤكد حرية الفرد لتحقيق مصالحه وبنوع خاص علاقاته الاقتصادية باقل تدخل ذى صفة رسمية او حكومية وذلك بافتراض ان الفرد يزداد انتاجه عندما تتاح له فرصة تحقيق مصالحه الخاصة بدون اى قيود خارجية وان هناك قوانين طبيعية تكفل سعادة الافراد ومن شأن تدخل الدولة عرقلة هذه القوانين .»

٧ - احرار الفكر : free thinkers - يطلق هذا الاصطلاح على المفكرين الذين يؤمنون بحرية الفكر واستقلاله، والذين يعارضون الفكر الذى يستند على العقائد والمبادىء الدينية .

هذه هى بعض التعاريف التى عرفت بها الحرية الاصطلاحية عند الغرب فهى فى جملتها تعنى اطلاق حرية الفرد وعدم تقييدها باى قيد خارج عنها سوى انهم وضعوا لها قيدين اثنين وهما .

1- عدم الاضرار بالآخرين . وهو ما يعبرون عنه بقولهم - تنتهى حرية الفرد عندما تبدأ حرية الآخرين .

ب - بما تفرضه القوانين العادلة الضرورية وواجبات الحياة الاجتماعية .

وهذا المعنى واصطلاحى للحرية لا علاقة له بمعناها الوضعى فى اللغة العربية، لان معناها فى اللغة العربية هو ما يقابل معنى الرق فقط فيقال بلال رقيق فأعطاه ابوبكر حريته فصار حراً . وليس لها فى اللغة العربية الا هذا المعنى .

اما المعنى الاصطلاحى للحرية الديمقراطية فهو ان يفعل الفرد فى نفسه او مع غيره ما يشاء وكيفما شاء على أن لايكون فعله هذا فيه اعتداء على حريات الآخرين، أوأنه يخالف القوانين العادلة الضرورية وواجبات والحياة الاجتماعية .

وهم يعبرون عن معنى الحرية عندهم بوجوب اطلاق الارادة الفردية من اى قيد خارج عنها، بل انهم يعتبرون ان اى قيد على هذه الحريات انما يعتبر اعتداءاً عليها فكان عمل الدولة فى النظام الديمقراطى الرأسمالى هو المحافظة على هذه الحريات من أى

اعتداء خارجى قد يقع عليها، وسواء أكانت هذه الحرية هى حرية الجنس او الحرية الاعتقادية او الحرية الاقتصادية . . . فالزنا فى النظام الديمقراطى الرأسمالى مباح طالما انه قد تم برضى الطرفين، والقمار مباح، والاحتكار مباح طالما ان ليس فيه اعتداء على الآخرين. واستغلال العامل مباح طالما ان العمل لم يكن بالاكراه .

هذا هو المعنى الاصطلاحى للحريات وهو الى جانب أنه يخالف المعنى اللغوى لكلمة حرية فى اللغة العربية فانه كذلك يخالف الاسلام فكان من الخطإ الفاحش ان يقال الاسلام دين الحريات ثم يستشهد بما قال الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لعامله على مصر عمرو بن العاص - متى استعبدتم الناس يا عمرو وقد ولدتهم امهاتهم احراراً .؟

فعمر رضى الله عنه انما قصد المعنى اللغوى لكلمة احرار فهو يقول لعامله ان الناس ليسوا أرقاء لك حتى تضرب منهم كل من خالفك الرأى، وإنماهم احرار اى ليسوا عبيداً، هذا هو المعنى الذى قصد اليه عمر رضى الله عنه ، ولم يخطر بباله المعنى الاصطلاحى ابداً، وذلك لان هذا المعنى لم يكن موجوداً ولا متعارفا عليه فى زمانه، علاوة على ذلك ، فانه لا يمكن ان يقول عمر لمن عاقب زانياً ، او مقامراً، او مرتداً . . . لما عاقبتهم وقد ولدتهم امهاتهم احراراً؟!! وبهذا يظهر لنا الفرق بين معنى كلمة حرية فى اللغة العربية ، وبين معناها الذى اصطلح عليه الغرب الرأسمالى، كما يظهر لنا مقدار مخالفتها للاسلام .

وأما مخالفتها لواقع ما عليه الانسان فانه يدرك من ادراكنا

لواقع الانسان نفسه، ان الواقع الذى عليه الانسان انه يعيش فى الحياة ضمن دائرتين، احداهما الدائرة القسرية، وهى الدائرة التى ليس له فيها أى ارادة او اختيار، وثانيها الدائرة الارادية، وهى الدائرة التى منح الله الانسان فيها الارادة والاختيار ، ثم انه حدد له هذه الدائرة ليدرك انه عاجز عن الخروج عليها، او تعدى حدودها، وهذا يدل على ان جميع ما عند الانسان من احساس وفكر وارادة وسمع وبصر . . . ان هى الا من نعم الله تعالى عليه، قال تعالى: «وما بكم من نعمة فمن الله» وقال تعالى : «وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها» فالانسان هو مخلوق و مملوك لله وكل ما عنده من ارادة واختيار فانما هى من عند الله فهل بعد هذا كله يصح لنا ان نقول ان ارادة الفرد يجب الا تحد بارادة خارجة عنها ؟!! وهل يستطيع احرار الفكر - freethinkers - الذين يعارضون ان يستند الفكر الى العقائد اوالمبادىء الدينية . ان يخبرونا عن الفكر الذى هو عندهم فهل هم الذين خلقوه لانفسهم ؟! والحواس التى يحسون بها الاشياء فهل هى من صنع ايديهم ؟! والمعلومات السابقة والقدرة على ربطها بالواقع او ربط الواقع بها فهل هى وجدت فيهم من لا شىء ام هم الذين أوجدوها لانفسهم؟! قال تعالى «ام خلقوا من غير شىء ام هم الخالقون» وهل يستطيع احرار الفكر ان يتجاوزوا الدائرة الارادية التى منحت لهم ؟! وهل يستطيع احرار الفكر ان يخبرونا من الذى اخضعهم للدائرة القسرية ؟! ومن الذى حدد لهم الدائرة الارادية ؟! وهل يستطيع احرار الفكر ان يتخلفوا عن السير فى الدائرة القسرية فيبقى احدهم نفسه فى سن الشباب ولا يذهب الى الكهولة ؟!! «إن الانسان لكفور.»

ان واقع ما عليه الانسان انه عبد لله تعالى، والله تعالى، هو الذى خلقه، وهو الذى اعطاه الفكر، وهو الذى منحه الدائرة الاختيارية، وهو الذى او جب عليه ان يقيد ارادته بما يريد الله منه، وهو الذى سيجازيه على عمله ان لم يقيد ارادته بما امره الله تعالى به، قال تعالى «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها .» هذا هو المبدأ الديمقراطى الرأسمالى وهذه هى عقيدته وهذا هو سبب ولادته وهذه هى الحريات التى هى اساس نظامه

(ولادة المبدإ الاشتراكى الشيوعى)

لقد عرفنا ان ولادة المبدإ الديمقراطى الرأسمالى قد كانت بسبب ردة الفعل التى احدثها ماكان يقوم به بعض رجال الكنيسة من اعمال . . . وقد عرفنا ان المبدأ الديمقراطى الراسمالى قد بنى على اسس غير سليمة . وبعد تسلم رجال الفكر او رجال السياسة دفة الحكم اطلقوا للناس الحريات من اى قيد خارجى، وقد ادى هذا الاطلاق الى وجود طبقة من الناس عرفوا باصحاب رؤوس الاموال او بالرأسماليين، ثم اصبح هؤلاء الرأسماليون يتحكمون فى مصائر الناس ويستغلون جهد العامل ابشع استغلال ، ثم امتد نفوذ هؤلاء الرأسماليين الى السلطة فاصبحت السلطة الفعلية بايديهم فكانوا هم الذين يوصلون الحاكم الى سدة الحكم باموالهم، وكانوا هم الذين يضعون النظام ليحكم الناس بموجبه ذلك الحاكم الذى استأجروه، ثم انهم كانوا يدفعون بالحاكم ليوجد لهم اسواقاً لمنتجات مصانعهم، ولا ستيراد المواد الخام اللازمة لتلك المصانع . . . فكان ان سيرت الجيوش لتستعمر البلاد لتحقق لهؤلاء الرأسماليين ما يريدون، حتى اصبحت هذه الدول لا تعرف الا باسم الدول الاستعمارية او باسم الدول الرأسمالية .

وفى خضم هذا الظلم الاستعمارى وذاك الاستغلال كان بعض مفكرى الغرب ـ الشيوعيون ـ يفكرون فى ايجاد نظام بديل ليستطيعوا

من خلاله تخليص الانسانية من ظلم النظام الرأسمالى . لقد اصبحت ردة الفعل عند هؤلاء المفكرين الشيوعيين مزدوجة ، فهم فى الاصل عندهم عقدة الدين بسبب ما كان يفعله رجال الكنيسة من اعمال ، وهذه العقدة جعلت رجال الفكر الشيوعى لا يفكرون فى حل مشكلتهم عن طريق الدين، بل انهم لقد اعتبروا أن الدين هو افيون الشعوب . ثم اضيفت الى عقدتهم السابقة عقدة جديدة، وهذه العقدة الجديدة كان سببها ردة الفعل لما سببه النظام الديمقراطى من استعمار للبلاد وظلم للعباد واستغلال للعمال . . . ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فاكدت للناس ان مثل هذه الحروب لم تشن من أجل الصالح العام وانما تشن من اجل استعمار البلاد وفتح اسواق لما تنتجه مصانع الرأسماليين . وقد عبر عن هذا الواقع ـ لينين ـ اذ كتب عام ١٩١٦ مؤلفه «الاستعمار أعلى مراحل الراسمالية ـ حدد موقفه من هذه الحروب بقوله» ان الحزب الشيوعى يتمسك بوجهة النظر التى تقول بان الحرب قد اعلنت ليس من اجل الدفاع عن الوطن بل من أجل الاستيلاء على اراضى الدول الأخرى ومن أجل نهب الشعوب الاخرى لصالح ملاكى الارض والرأسماليين الامر الذى يفرض على العمال ان يحاربوا هذه الحرب، انتهى . . .

اذاً فالعقدة الثانية كان سببها سوء النظام الرأسمالى . . . فكان اصحاب الفكر من الشيوعيين ـ وعلى رأسهم ماركس وانجلز ولينين . . . ـ يبحثون عن طريقه لتخليص الانسانية من ظلم النظام الرأسمالى الاستعمارى .

كانت هناك آراء كثيرة تدور بين المفكرين الشيوعيين ، ومن

هذه الآراء رأى قديم ، وهذا الرأى يقول ان المادة ازلية مستغنية بنفسها عن غيرها .

فما ان وقع نظر المفكرين الشيوعيين على هذه النظرية حتى تلقفوها، لأنهم قد وجدوا فيها ضالتهم المنشوده . فأخذوا يبنون نظرياتهم على هذه النظرية القديمة، ثم انهم اسندوا جميع الحوادث والنظم الطبيعية الى التطور المادى والذى يحدث بسبب صراع المتناقضات داخل المادة نفسها حسب رأيهم .

وبهذا نجد ان ولادة المبدإ الاشتراكى الشيوعى انما كانت بسبب رده الفعل المزدوجة . فردة الفعل الأولى كان سببها ما كان يقوم به رجال الكنيسة من اعمال . وكانت ردة الفعل الثانية سببها ما احدثه النظام الرأسمالى الاستعمارى من ظلم للعباد واستعمار للبلاد، وقد ادت هذه الحالة لان يبنى المفكرون الشيوعيون نظريتهم على المادة دونما بحث وتفكير فى المادة نفسها . وحتى ندرك صحة هذا البناء او عدم صحته كان لابد لنا من دراسة المادة والتطور المادى، والوقوف على حقيقته، فهل هو مطابق لما عليه الوجود؟! ام انه مخالف له؟!. وهل حركة المادة هى حركة نابعة من المادة نفسها؟ ام انها حركة من غير المادة وقد فرضت عليها .؟!

(نظرية التطور المادى)

يرى الماديون ان المادة فى حالة تطور مستمر، والتطور - عندهم - هو انتقال المادة من الحالة التى هى عليها الى حالة افضل منها ، ويرون ان هذا الانتقال انما هو انتقال حتمى وان سببه هو صراع المتناقضات فى المادة نفسها . . .

ونحن اذا اردنا الوقوف على حقيقة هذه النظرية لندرك مطابقتها او عدم مطابقتها للواقع ، فانه يجب علينا ادراك الامور التالية .

(ا) الوقوف على حقيقة المادة من حيث هى مادة .

(ب) الوقوف على حقيقة الحركة المادية من حيث هى حركة .

(ج) الوقوف على سبب الحركة المادية .

(د) ادراك ما معنى التناقض .

(و) هل يلزم من انتقال المادة ان يكون الى حالة افضل ام لا .؟!

فاذا ما تم لنا ادراك هذه الامور تمام الادراك فانه عندها يسهل علينا معرفة صحة اوعدم صحة المبدإ المادى - الاشتراكى الشيوعى - .

﴿تعريف الماده﴾

لقد عرفت المادة بعدة تعاريف اهمها .

١- المادة ما اشغلت حيزاً مكانياً وكان لها وزن مهما قل ذلك الوزن وذاك الحيز المكانى ، واصحاب هـذا التعريف يرون ان الموجودات تقسم الى قسمين .

(ا) مادية .

(ب) ومعنوية .

فما يشغل حيزاً ويكون له وزن فهو عندهم مادى مثل الذرة والقلم ، واما الاشياء المعنوية فهى عندهم مثل الكرم والشجاعه والعقل . . .

٢- عرف الماديون المادة بانها كل ما فى الوجود .

واصحاب هذه الرأى يرون ان المادة ازلية مستغنية بنفسها عن غيرها .

٣ـ المؤمنون بوجود الخالق عرفوا المادة بانها كل ما سوى الخالق من المخلوقات فهو مادة ، واصحاب هذه الرأى يرون أن المادة غير ازلية، ولا مستغنية بنفسها عن غيرها ، وانما هى مخلوقة لخالق .

ان الناظر الى هذه التعاريف الثلاثة يجدأن اصحاب التعريف الأول لم يتجاوزوا فى تعريفهم للمادة حدود ما اصطلحوا عليه . فهم لم يعطوا المادة أى حكم زائد عن التعريف .

اما اصحاب الرأى الثانى والثالث فانهم قد عرفوا المادة ثم حكموا عليها ما هى ولهذا فان الذى يهمنا فى هذا البحث هو الوقوف على حقيقة التعريفين الأخيرين ، فاذا ثبت ان المادة ازلية فقد ثبت لنا صحة التعريف الثانى وبطلان التعريف الثالث اما اذا ثبت لنا ان المادة غير ازلية وانها غير مستغنية بنفسها عن غيرها . . . فقد ثبت لنا صحة التعريف الثالث وبطلان التعريف الثانى .

وحتى نـدرك ذلك فلابد لنا من ادراك حركة المادة واسباب هذه الحركة .

﴿حركة المادة﴾

ان المادة باقسامها الثلاثة فى حالة حركة مستمرة ، وسواء اكانت هذه الحركة مما يشاهد بالعين المجردة مثل حركة انتقال الشمس والكواكب وحركة نمو جسم الكائن الحى . . . ام كانت مما قد

ثبت علمياً وان لم يكن يرى بالعين المجردة ، وذلك مثل حركة مكونات الذرة ـ وهذه الحركة قد تكون بسبب عوامل داخلية مثل حركه مكونات الذرة ـ وقد تكون بسبب عوامل خارجية . مثل تمدد الاجسام الصلبة بالحرارة، وهذه الحركة قد لا يحصل بسببها تحول للمادة عن حالتها السابقة الى حالة اخرى وذلك مثل حركة مكونات الذرة، وقد يحصل من هذه الحركة تحول، مثل تجمد الماء بالبرودة وسيولة الحديد بالحرارة .

وقد يكون هذا التحول تحولا باللون او بالطعم او بالرائحة او بالنعومة والخشونة او بالنموا او بالضمور . . .

فماذا ياترى اسباب حركة هذه المادة وانتقالها ؟! فهل سبب ذلك هو وجود المتناقضات كما يدعى الماديون ؟! ام ان سبب ذلك انما هو النظام المفروض على المادة من خالق المادة نفسها ؟!

﴿اسباب الحركة المادة﴾

يرى الماديون ان سبب حركة المادة وتطورها هو وجود الصراع بين المتناقضات وبسبب هذا الصراع تتحول المادة ـ عندهم ـ من حالة الى حالة افضل ، وهم يخضعون كل حركة فى هذا الوجود الى هذا السبب . فمثلا عندهم ان جسم الانسان يتطور بفعل الصراع الدائر بين خلا يا الجسم نفسه فتموت خلا يا وتوجد خلا يا جديدة بسبب هذا التطور . ويعبرون عن ذلك بصراع المتناقضات، ويرون ان تحول المجتمع من مجتمع رأسمالى اقطاعى الى مجتمع اشتراكى شيوعى انما يتم بسبب الصراع بين المتناقضات ويخصون بالمتناقضات هنا ـ العمال وارباب العمل ـ وعندهم ان تطور

العلاقات في المجتمع انما تكون تبعاً لتطور وسائل الانتاج فيه . . . وهكذا يستمرون في اخضاع كل حركة مادية الى هذا التطور الناجم عن صراع المتناقضات . . .

ونحن حتى ندرك حقيقة هذه النظرية وهل هي مطابقة للواقع ام انها مخالفة له ، كان لابد لنا من ادراك واقع التناقض ما هو ، ثم بعد ذلك نناقش الامثله التي او ردوها على تطور جسم الأنسان وتطور المجتمعات وتطور العلاقات .

حقيقة التناقض ما هي

يطلق بعض الناس لفظ التناقض على بعض الافكار أو الآراء أو الاقوال . . . فيقول : هذه افكار متناقضة . أو يقول هذه آراء أو اقوال متناقضه مثلا وعند النظر الى حقيقة ذلك الموصوف فاننا لا نجد ان ما وصف به هو من باب التناقض ، وانما يكون من باب الاختلاف ، أو التغاير مثلا : وحتى يتسنى لنا معرفة الفروق بين كل من التساوي فالتشابه فالتفاوت فالاختلاف فالتباين فالتغاير فالتناقض، فاننا نضع هذا السلم التقريبي لبيان هذه الامور حسب دلالتها التي هي عليها مبعدين عنها الاستعارة والكناية والتشبيه . . .

١- فالتساوي هو اشتراك موصوفين فاكثر في صفة واحدة على حد سواء مثل حجم هذه التفاحة يساوي حجم هذه البرتقالة، ولون هذا الكحل يساوي لون هذا الفحم في السواد ، والتحصيل العلمي عند الامام الشافعي يساوي التحصيل العلمي عند الامام ابي حنيفه .

٢- التشابه : هو اشتراك موصوفين فأكثر في صفة واحدة على حد متقارب مثل لون هذا الورق قريب من لون القطن في البياض ،

وحجم هذه الحمامه قريب من حجم هذا الصقر، والتحصيل العلمى عند الامام الشوكانى قريب من التحصيل العلمى عند الامام الشافعى

٣- التفاوت : هو اشتراك موصوفين فاكثر فى صفة واحدة على حد متباعد، مثل لون الدم اكثر احمراراً من لون الشفق وجسم الجمل اكبر من جسم الفاره، والامام الشافعى اكثر علماً من الامام الجوينى.

٤- الاختلاف : هو وجود موصوفين يتصف كل واحد منها بعكس ما يتصف به الآخر مثل الثوب ابيض والجبة سوداء، والنعامة كبيرة والحمامة صغيرة ، والشتاء بارد والصيف حار ، وهذا الرجل عالم ذاك الرجل جاهل .

٥- التباين : هو وجود موصوفين يتصف كل واحد منهما بعكس ما اتصف به الآخر مع وجود فارق كبير بين الوصفين مثل

القطن شديد البياض والفحم شديد السواد . وحاتم كثير الكرم وماذر شديد البخل ، وهذا الرجل كثير العلم وهذا الرجل كثير الجهل، والفيل كبير الجسم والفار صغير الجسم .

٦- التغاير : هو وجود موصوف فاكثر يتصف باكثر من صفة وتكون كل صفة مغايرة لباقى الصفات مثل الشمس طالعة والسماء زرقاء، والرجل كريم شجاع طويل ابيض اللون . . .

٧- التناقض هو الحكم على موصوف واحد بوصفين يلزم من اتصافه باحدهما فى زمان ومكان ما وجوب انتفاء الوصف الثانى عنه عقلا. مثل : القلم مكسور وغير مكسور . والرجل موجود وغير

موجود ، والمرأة حامل وغير حامل ، والعالم محدود وغير محدود والمادة ازلية وغير ازلية .

اذاً فهذا هو واقع التناقض ، فاذا ما اردنا ان نحكم على بعض الآراء مثلا بانها متناقضة فانه يجب علينا ان ندرك واقع ما اتصفت به هذه الآراء فاذا كان واقع ما اتصفت به يدخل فى باب التناقض حكمنا عليها بانها آراء متناقضة، واذا كان واقع ما اتصفت به يدخل فى باب الاختلاف حكمنا عليها بانها آراء مختلفة . . . ولا يجوز ان نخلط بين هذه الامور او الاحكام عند ما نريد ان نحكم على موصوف معين ، بل الواجب ان نحكم عليه حسب واقع الوصف الذى هو عليه . وذلك لأن الدقة فى الحكم تكمن فى ادراك واقع ما اتصف به المحكوم عليه من اوصاف . وفى ادراك واقع التناقض تمام الادراك، وفى ادراك مقدار انطباق هذا الحكم على ذلك الواقع. فاذا ما ادركنا هذه الامور تمام الاداك كان حكمنا حكماً مطابقاً لواقع ما عليه المحكوم له او عليه. والا فانه لا يؤمن من وقوع الخطإ اذا ما خلطنا بين التناقض والاختلاف . مثلا

والذى يساعدنا على فهم واقع التناقض هو ان العقل السوى لا يقبل وجود الصفة ونقيضها لموصوف واحد فى زمان ومكان واحد وفى حكم واحد . فالعقل يرفض ان يكون القلم مكسوراً وغير مكسور فى آن واحد ، والعقل يرفض أن يكون العالم محدوداً وغير محدود. . . والعقل يرفض ان تكون المادة ازلية وغير ازلية، والعقل يرفض ان تكون المرأة حامل وغير حاملة فى آن واحد .

فالعقل اذا اثبت احدى الصفتين المتناقضتين للموصوف فانه يحتم انتفاء الصفة المناقضة لها عنه ، فاذا اثبت العقل للقلم صفة الكسر فانـه ينفى عنه صفة عـدم الكسر ، واذا اثبت للعالم صفة المحدودية فانه ينفى عنه صفة عدم المحدودية . وهكذا .

وقد يقال : انه لا يمتنع عقلا ان يعطى انسان ما وصفاً لأمر ما ثم يعطيه وصفاً آخر مناقضاً لما وصفه به سابقاً . وعندها يكون قد اجتمع على موصوف واحد وصفان متناقضان .

والجواب على ذلك هو ان من الاوصاف التى تتصف بها الامور ما هو ثابت فلا يؤثر فيه العامل الزمنى، وان منها ما للعامل الزمنى فيها تأثير ، فوصف العالم بأنه محدود هو من الاوصاف التى ليس للعامل الزمنى فيها تأثير ، ووصف الرجل بأنه موجود فهذا الوصف يتأثر بالعامل الزمنى . فاذا اعطى شخص ما وصفاً لامر ما ثم اعطاه وصفاً مناقضاً لما وصفه به اولا وكان ذلك الوصف مما ليس للعامل الزمنى فيه اثر فانه ينظر فاذا كان الشخص لا يزال يعتقد بوجود الوصف الأول عند اعطائه الوصف الثانى فان هذا يدخل فى باب التناقض مثل ان يقول العالم محدودثم يقول العالم غير محدود مع تمسكه بالرأى السابق . اما اذا كان الشخص قد اضرب عن رأيه الاول عند اعطائه الوصفالثانى فقال كنت اظن ان العالم غير محدود ولكن ارى الآن انه محدود . فهذا يدخل فى باب الصح والخطإ ولا علاقة له فى باب التناقض من حيث اجتماع النقيضين . . . فاذا كان رأيه الأخير مطابقاً لواقع ما عليه العالم فانه يكون رأياً صحيحاً اما اذا خالف لواقع ما عليه العالم فانه يكون رأياً خاطئاً. وهذا كله يكون فى

إعطاء الاوصاف التي ليس للعامل الزمني فيها أثر ، اما اذا كان الوصف الذى اعطاه اولا مما للعامل الزمنى فيه اثر ثم اعطى بعد ذلك وصفاً لذلك الموصوف مناقضاً للوصف الأول فانه من المحتمل ان يكون الوصفان صحيحين مثل ان يقول الرجل غير موجود ثم يقول الرجل موجود، فقد يكون الرجل غير موجود عند اعطائه الوصف الأول ثم حضر فاعطى الوصف الثانى فكان كلا الوصفين صحيحين ولا علاقة لهما فى باب التناقض لأنهما لم يكونا وصفين فى زمن واحد وهما مما يتأثران بالعامل الزمنى .

وقد يقال : انه لا يمتنع عقلا ان يجتمع طبيبان فى زمان ومكان واحد فيعطى احدهما وصفاً للمرأة فيقول انها غير حامل، ثم فى نفس الزمان والمكان يقول الطبيب الثانى ان المرأة حامل ، فيكون قد اجتمع على موصوف واحد فى زمان ومكان واحد وصفان متناقضان صدرا عن قناعة عقلية تامة . فيكون العقل قد حكم بامكان صحة اجتماع النقيضين فى موصوف واحد .

والجواب هو : انه وان كان الحكمان قد صدرا فى زمان ومكان واحد وعلى موصوف واحد الا انه لم يجتمع فى كلا الحكمين الصفة وما يناقضها ، فالطبيب الأول عند ما اعطى المرأة وصف بأنها حامل فقد نفى فى حكمه هذا عنها وصف انها غير حامل، والطبيب الثانى عند ما اعطاها وصف بأنها غير حامل فقد نفى عنها صفة الحمل . فالحكم الواحد لم يجتمع فيه وصفان متناقضان، والعقل عند كلا الطبيبين لم يقبل بامكان اجتماع المتناقضين، والذى حصل فى مثل هذا المثال انما هو وجود حكمين متناقضين، والعقل

لا يمنع من وجود التناقض بين حكمين او قولين أو رأيين فقد يأتى شخص فيقول ان العالم محدود ثم يأتى شخص آخر فيقول ان العالم غير محدود فالعقل لايمنع من وجود مثل هؤلاء الاشخاص المتناقضين فى افكارهم وآرائهم وانما يمنع العقل صحة اجتماع النقيضين فى حكم واحد على موصوف واحد فى زمان ومكان واحد . فالعقل لا يقبل ان يكون كلا الحكمين اللذين صدرا عن الطبيبين كانا صحيحين . فالعقل يحتم ان احد الحكمين لا على التحديد قد كان خطأ.

وبهذا يظهر جلياً استحالة اجتماع النقيضين فاذا كان اجتماعها مستحيلا عقلا فكيف يحصل صراع بينهما !؟! وبعد بيان استحالة ، اجتماع النقيضين نبدأ بمناقشة الامثلة التى يستشهد بها الماديون على ان سبب التطور هو الصراع بين المتناقضات . . . ولنأخذ أولا المثال الذى يستدلون به على سبب تطور جسم الانسان . . . فهم يرون ان سبب تطور جسم الانسان مثلا هو الصراع بين الخلايا الحية والخلايا الميتة فيه .

ان الناظر الى هذا المثال لا يجد فيه أى اجتماع للمتناقضات ، وذلك لانهم يذكرون فى مثالهم هذا اجتماع موصوفين ، وصف احدهما بصفة الموت ووصف الآخر بصفة الحياة ، وهذا ليس من باب التناقض ؛ وانما هو من باب الاختلاف ، فهو مثل قولنا الشتاء بارد والصيف حار . وقد يقال ان الوصف وان كان وصفا لمركبات الجسم ولأجزائه الا ان الوصف منصب على ذات الجسم من حيث هو جسم فيكون الوصفان قد اجتمعا على موصوف واحد وهو الجسم .

والجواب على ذلك هو ان الاوصاف التي تطلق على اجزاء الجسم ومركباته فمنها ما يصح وصف ذات الجسم به ومنها ما لايصح. فمثلا الرجل الاعرج نقول عنه رجل أعرج ورجل عرجاء ونقول رجل اكتع ويد كتعاء . . . فاذا ما وصفنا كلتا الرجلين او اليدين عنده فاننا نقول رجل عرجاء ورجل غير عرجاء ويد كتعاء ويد غير كتعاء فاذا ما اردنا ان ننقل هذا الوصف الى الجسم فانه لا يصح ان نصفه بهذين الوصفين فلا يقال رجل اعرج وغير اعرج او رجل اكتع وغير اكتع . . . والوصف الذي اطلقه الماديون على جسم الانسان هو من هذا النوع فهم يقولون ان الصراع قائم بين خلايا حية وخلايا ميتة ولكن هل يصح منهم ان يقولوا جسم حي وغير حي أو جسم ميت وغير ميت او جسم حي وميت . . .

وقد يقول الماديون ان سبب تطور جسم الانسان انما هو بسبب الصراع الدائر بين الخلايا الحية والخلايا الميتة فيه، بغض النظر عن كون هذا الوصف هو من باب التناقض ام انه ليس منه . اذ لا قيمة للمسميات في مقابل الحقيقة، وان الحقيقة الثابتة هي ان سبب تطور الجسم انما هو بسبب الصراع بين الخلايا الحية والخلايا الميتة .

والجواب على ذلك هو : ان الثابت علمياً ان خلايا الجسم ليست نوعاً وحداً، فهناك خلايا دائمة البقاء ما بقي الجسم فاذا طرأ على مثل هذه الخلايا بعض التلف فان الجسم لا يعوض عنها وذلك مثل الخلايا العصبية وخلايا البنكرياس وخلايا الدماغ . . .

وهناك خلايا يعاد تركيبها داخل عظام الجسم مثل خلايا الدم . . وهناك خلايا تموت في الجسم وهذه الخلايا يطرحها الجسم

ويعوض عنها بخلايا جديدة عن طريق الغذاء . . . فأي نوع من انواع هذه الخلايا الذى ينطبق عليه المثال الذى ساقه الماديون ؟!

ان اقرب نوع يمكن ان ينطبق عليه المثال انما هو النوع الثالث من انواع الخلايا وهو النوع الذى تموت خلاياه فى الجسم ويعوض الجسم عنها بخلايا جديدة عن طريق الغذاء ، ونحن يمكن ان نطرح على المادين السؤال التالى :

ما هو سبب وجود الخلايا الجديدة فى الجسم ؟! فهل كان سبب وجودها الصراع بينها ـ قبل وجودها ـ وبين الخلايا التى كانت موجودة قبلها فى الجسم ؟!! ام ان سبب وجودها غير هذا ؟! فاذا قالوا ان سبب وجودها هو الصراع الذى كان بينها وبين الخلايا التى كانت موجودة قبلها . . . قلنا لهم لقد ادعيتم فى قولكم هذا دعوى لا يقبل بها عقل عاقل ! إذأنه كيف يحصل صراع بين الموجود وبين المعدوم ؟!! اما اذا قالوا ان وجود الخلايا الجديدة مستحيل ان يحصل بسبب الصراع بينها وبين ما كان موجوداً قبلها من الخلايا . . . قلنا لهم لقد نقضتم نظريتكم بانفسكم وعليكم ان تبحثوا عن السبب الذى تم بموجبه وجود الخلايا الجديدة . ان السبب الحقيقى لوجود الخلايا الجديدة وغيرها هو وجود الخالق والذى ينكر الماديون وجوده، فالخالق هو الذى أوجد الكائنات ومنها الانسان وهو الذى خلق فى جسم الانسان ما خلق من خلايا وهو الذى اخضع هذه الخلايا لنظام فرضه عليها من عنده وهذه الخلايا مع اجزاء الجسم واعضائه تقوم باداء ما فرض عليها من نظام عمل بدون ارادة منها ولا اخيار . ومن الامور التى فرضت على اعضاء الجسم هو القيام بصنع

خلايا جديدة عن طريق الغذاء لتعوض الجسم عما فقده من الخلايا . . . . فيدخل الغذاء المعدة فتقوم بعمل ما فرض عليها القيام به فتفرز عليه سائلا معدياً ثم تقوم بعملية هضمه ثم تفرز كل غدة من غدد الجسم على هذا الطعام ما يحتاجه من افرازاتها ثم يصل الغذاء الى الا معاء الغليظة فتقوم شعيرات بامتصاص ما فى هذا الغذاء من فوائد للجسم فترسلها الى الجسم عن طريق الدم ويقوم الجسم بعملية ترميم اذا كان هناك ما يدعو اليه . . . مثل وجود جرح او غيره . . . ومن هذه العمليات تصنع الخلايا الجديده . . . ويتم كل ذلك فى منتهى الدقة . فمن ياترى وراء هذا الايجاد بهذا النظام ؟! لا اظن ان احداً يقول ان هذا التنظيم قد او جدته اجزاء ومركبات الجسم لأن اجزاء ومركبات الجسم نفسها خاضعة لهذا النظام خضوعاً تاماً ولا تستطيع الخروج عليه او التخلف عنه فلو ان هذا التنظيم كان منها لاستطاعت ان تخرج عليه . . . فلم يبق إلا أن يقول اصحاب العقول ان هذا التنظيم ليدل دلالة قاطعة على وجود الخالق . ومع هذا كله فاننا لا نجد أى علاقة بين تطور جسم الانسان ـ من طفل الى شاب الى كهل ـ وبين الخلايا الحية والخلايا الميتة فيه . ان عمل هذا النوع من الخلايا الاساسى هو امداد الجسم بمقومات الحياة والقدرة على الحركة وبذل الجهد الفكرى والجسمانى وحمايته من الضعف والمرض . . . ولا علاقة لها بتطور جسم الانسان وانتقاله من حالة الطفولة الى حالة الشباب ثم الى حالة الكهولة . فهذا التحول والانتقال انما يتم حسب نظام خاص به وهو من الدائرة القسرية المفروضه على الانسان نفسه . والانسان نفسه لا

يستطيع الا ان يسير حسب ما فرض عليه فى هذه الدائرة . ان كل مخلوق فى هذه الحياة انما يسير حسب نظام خاص به وقد فرضه الخالق عليه . . . فنظام حركة مكونات الذرة غير حركة المجموعة الشمسية، ولا علاقة لأحد النظامين بالآخر مع ما فى بينهما من التشابه بالحركة والنظام الحركى، وكذلك الشأن بالنسبة لنظام اجزاء الجسم ونظام الخلايا التى فيه ، فنظام العمل الذى تقوم به الدرارة مثلا غير نظام العمل الذى يقوم به البنكرياس ، ونظام عمل الخلايا العصبية فى الجسم غير نظام عمل الخلايا النسيجية فيه ، مع ان عمل كل منهما هو عمل خلية ، ونظام تكاثر الثديات من الحيوانات والاسماك غير نظام تكاثر الطيور وبعض الاسماك مع ان كل منها نظام تكاثر، ونظام حياة الكائنات المائية غير نظام حياة الكائنات البرية مع ان كل منهما هو نظام حياة . قال تعالى : «انا كل شيء خلقناه بقدر وما امرنا الا واحد كلمح بالبصر .»

وبهذا يظهر لنا مقدار الخطإ فى تعليل الماديين لسبب تطور جسم الكائن الحى وتطور جسم الانسان على الاخص . كما يظهر لنا مقدار بعد ما قالوه فى ذلك عن الواقع الذى يتم بموجبه انتقال الانسان من طفل الى شباب قوى الى كهل ضعيف . . .

وبعد هذا فلنبدأ بمناقشة ما قالوه عن سبب تطور المجتمعات من مجتمع الى مجتمع افضل .

﴿اسباب تطور المجتمع﴾

يرى الماديون ان سبب تطور المجتمع هو وجود الصراع بين المتناقضات . فعندهم ان تطور المجتمع من مجتمع رأسمالى الى

مجتمع شيوعى انما يتم بسبب الصراع الدائر بين العمال وارباب العمل .

والناظر فى هذه الرأى لا يجد فيه أى اثر للتناقض ناهيك عن أثر الصراع . . . فالرأى قد اشتمل على موصوفين وقد اتصف كل واحد منهما بصفة غير صفة الآخر ، فهنا اناس عمال واناس آخرون ارباب عمل . فهذا انما ينطبق عليه تعريف التغاير اذ ان التغاير هو وجود موصوف فاكثر يتصف باكثر من صفة وتكون كل صفة مغايرة للصفة الأخرى او للصفات الأخر . . . اما التناقض فانه : الحكم على موصوف واحد بوصفين يلزم من اتصافه باحدهما فى مكان وزمان واحد وجوب انتفاء الوصف الثانى عنه عقلا . فاين هذا الرأى من تعريف التناقض ، ياترى ؟!!

وقد يقول الماديون ، نحن انما قصدنا بقولنا عن سبب تطور المجتمع من مجتمع رأسمالى اقطاعى الى مجتمع اشتراكى شيوعى . إنما هو مجرد وجود الصراع الطبقى الدائر بين العمال من جهة وبين ارباب العمل من جهة أخرى ، بغض النظر عما اذاكان هذا الصراع من باب التناقض او من باب التغاير او من باب الاختلاف . اذ ان السبب منصب على وجود الصراع فقط .

والجواب على ذلك هو : حتى ندرك انطباق هذا الكلام على الواقع او عدم انطباقه فإنه يجب علينا اولا ان ندرك ما معنى الصراع وما معنى الصراع الطبقى ثم ما معنى المجتمع وما هى مقوماته وما الاسباب التى تكون وراء تحوله . ومن خلال ادراكنا لهذه الامور ندرك مصداقية انطباق هذا القول على الواقع او عدم مصداقيته .

﴿الصراع والصراع الطبقى﴾

لقد اطلق على الصراع والصراع الطبقى عدة تعاريف منها .

١- فى علم النفس عرف الصراع بأنه حالة انفعالية مؤلمة تنتج عن النزاع بين الرغبات المتضادة وعدم اشباع الحاجات . او عدم السماح لرغبة مكبوتة بالتعبير عن ذاتها شعوريا .

٢- وعرف بأنه أحد انماط التفاعل الاجتماعى الذى ينشأ عن تعارض المصالح ، وهو الموقف التنافسى حيث يعرف كل من المتنافسين غريمه ويدرك أنه لا سبيل الى التوفيق بين مصالحه وبين مصالح الغريم فتنقلب المنافسة بينهما الى صراع حيث يعمل كل منهما على تحطيم الآخر والتفوق عليه .

٣- وعرف الصراع الطبقى بانه : الصراع الذى ينشأ عن تعارض المصالح بين الطبقات المختلفة .

٤- وعرف الصراع الطبقى طبقاً لنظرية ماركس بأنه تميز المجتمع الصناعى الحديث بالنزاع بين اصحاب رؤوس الاموال من ناحية والطبقة العاملة من ناحية اخرى حتى يأتى وقت تقهر فيه الطبقة العاملة طبقة اصحاب رؤس الأموال .

٥- ويقصد غير الماركسيين بالصراع الطبقى : النزاع الذى يجد جذوره فى فئات المجتمع وطبقاته ، والذى لا يقوم على العوامل الاقتصادية وحدها وانما ايضاً على اسباب أخرى تساهم فى ايجاده مثل التوزيع غير المتكافىء للسلطة والامتيازات .

هذه هى أهم التعاريف التى عرف بها الصراع والصراع الطبقى .

ان الناظر فى اسباب هذا الصراع يجد انه لا يخرج عن كونه ، اما بسبب التعارض بين المصالح والرغبات . واما بسبب عدم العدالة فى توزيع السلطة والامتيازات ، واما بسبب عدم التمكين من اشباع الحاجات والتعبير عن الرغبات ، واما بسب التنافس على المصالح للحصول على اكبر قدر ممكن منها .

وهـذه الاسباب كلها ليس فيها ولا سبب واحد يـدعو الى الصراع بين الطبقة العاملة وبين طبقة اصحاب رؤوس الاموال ، فوجود طبقة عاملة لا يتعارض مع مصلحة أصحاب رؤوس الاموال ولا يحول دون اشباع حاجاتها وتحقيق رغباتها . ووجود اصحاب رؤوس اموال لا يتعارض مع مصلحة الطبقة العاملة ولا يحول دون اشباع حاجاتهم وتحقيق رغباتهم . بل ان من مصلحة الطبقة العاملة وجود اصحاب رؤوس اموال حتى تحقق عن طريق العمل معها مصالحها وتشبع حاجاتها ورغباتها، وان من مصلحة اصحاب رؤوس الاموال وجود طبقة عاملة حتى تحقق عن طريق التعامل معها الربح لتشبع به حاجاتها ولتحقق رغباتها . . . فوجود طبقة عاملة ووجود اصحاب رؤوس اموال ضرورة اجتماعية فلا يستغنى عنها أى مجتمع مهما كان شأنه حتى المجتمع الاشتراكى الشيوعى فانه بحاجة الى وجود عمال والى وجود اصحاب رؤوس اموال ليعمل معهم أولئك العمال . فالشعب فى الدول الاشتراكية كله عمال واصحاب رؤوس الاموال هم الطبقة الحاكمة فيه .

هـذا بالنسبة الى الصراع الـذى يكون من اجل المصالح والرغبات واشباع الحاجات فانه لا يوجد أى سبب من اسباب

وجود هذا الصراع يفرضه وجود الطبقة العاملة ووجود اصحاب رؤوس الأموال .

واما بالنسبة الى التنافس والذى هو احد اسباب الصراع فانه لا يوجد أى تنافس بين الطبقة العاملة وطبقة اصحاب رؤوس الاموال وانما يحصل التنافس بين اصحاب رؤوس الاموال انفسهم فيتسابقون الى كسب السوق فيعمل كل واحد منهم على منافسة اقرانه ليحقق ربحاً اكبر من ربحهم وذلك اما عن طريق الدعاية ، واما عن طريق تخفيض الثمن لضرب السوق ، واما عن طريق جودة السلعة ليكسب السوق، وقد يحصل تنافس بين افراد الطبقة العاملة ليحصل كل فرد منها على عمل افضل سواء إكان ذلك بسبب كون الاجر افضل او ان يكون العمل نفسه يحتاج الى جهد او وقت اقل مع تساوى الأجر مع غيره من العمل ، وقد يأخذ بعض العمال العمل الكثير ثم يشغلون معهم عمالا آخرين ليحققوا عن طريق هذا العمل ربحا مضافاً الى اجورهم فيأتى عمال آخرون فينافسونهم على اخذ هذا العمل حتى يزيحوهم عنه ويختصواهم به . وهكذا .

واما الصراع بسبب عدم العدالة فى توزيع الامتيازات والسلطات وعدم السماح للتعبير عن الآراء وعدم العدل والانصاف فى الاجور فإن ذلك كله لم يفرضه وجود طبقة عاملة ووجود اصحاب رؤوس اموال . وانما يعود ذلك الى النظام الذى يحدد العلاقات ويعالج المشاكل فى المجتمع ومنها علاقة العمال بارباب العمل .

وبهذا يظهر ان لا وجود لتعارض المصالح بسبب وجود العمال ووجود ارباب العمل ، وان لا وجود للتنافس بسبب وجود

الطبقة العاملة وارباب العمل، وان لا وجود لتعارض اشباع الحاجات بسبب وجود العمال وارباب العمل ، وان لا وجود لكبت الرغبات بسبب وجود العمال وارباب العمل ، ومن ثم فانه لا وجود للصراع بين العمال وارباب العمل بسبب وجود كل طبقة منهما مع الأخرى .

واما ما ورد فى تعريف الماركسين من ان المجتمعات الصناعية الحديثة قد تميزت بالنزاع بين اصحاب رؤوس الاموال من ناحية والطبقة العاملة من ناحية أخرى حتى يأتى وقت تقهر فيه الطبقة العاملة اصحاب رؤوس الاموال .

اقول : ان هذا النزاع لم يكن سببه وجود طبقة عاملة ووجود اصحاب رؤوس اموال ابداً . وانما سببه سوء النظام . فالنظام لم يحدد علاقة العمال بارباب العمل كما يجب والنظام لم يعالج مشكلة العمال بالعلاج الصحيح . فسوء تحديد العلاقات وسوء معالجة المشاكل الاجتماعية هما السبب فى وجود النزاع بين العمال وارباب العمل وليس وجود العمال وارباب العمل كان سبباً لهذا النزاع او الصراع وذلك لان وجود عمال وارباب عمل ضرورة اجتماعية لا يستغنى عنها أى مجتمع، واما قولهم انه يأتى يوم تقهر فيه الطبقة العاملة اصحاب رؤوس الاموال . . . فان هذا القول يخالف الواقع ويخالف الحالة التى صارت اليها نفس الدولة الاشتراكية . فاما مخالفة هذا القول للواقع فان واقع الدول الصناعية والتى يوجد فيها نزاع بسبب سوء تنظيم العلاقات العمالية بارباب العمل . . . فانها لاتزال دول صناعية رأسمالية ولم يحصل فيها ان قهرت الطبقة العاملة اصحاب رؤوس الاموال وذلك مثل امريكا وألمانيا وفرنسا . . .

واما مخالفة هذا الكلام للحالة التى صارت اليها الدول الاشتراكية فهو انه لم يحصل فيها تغلب من الطبقة العاملة على أصحاب رؤوس الاموال وانما الذى حصل هو ان الحزب الشيوعى عند ما وصل الى الحكم وقامت الدولة الاشتراكية فى روسيا وعند قيامها فرضت نظاماً جديداً لمعالجة مشكلة العمال وارباب العمل فمنعت الملكية الفردية ومنعت تملك وسائل الانتاج فتحول المجتمع فى الدول الاشتراكية من مجتمع رأسمالى اقطاعى الى مجتمع اشتراكى حسب النظام الجديد الذى فرضه الحزب الحاكم وليس حسب تغلب العمال على ارباب العمل . . . وحتى يتضح لنا كيف يتم تحول المجتمعات لابد لنا من معرفة ما هو المجتمع ، وما هى مقوماته وما هى الاسباب التى تكمن وراء تحوله من مجتمع الى مجتمع آخر .

﴿ المجتمع ﴾

وصف المجتمع بانه : جماعة من الناس يعيشون معاً فى منطقة معينة وتجمع بينهم ثقافة مشتركة ومختلفة عن غيرها، وشعور بالوحدة كما ينظرون الى انفسهم ككيان متميز ، ويتميز المجتمع كتجمع الجماعات ببنيان من الادوار المتصلة ببعضها والتى تتبع فى سلوكها المعايير الاجتماعية ويتضمن المجتمع جميع النظم الاجتماعية الاساسية الضرورية لمواجهة الحاجات البشرية الاساسية وهو مستقل لا بمعنى اكتفائه الذاتى التام اقتصادياً ولكن بمعنى شموله لجميع الاشكال التنظيمية الضرورية لبقائه .

من خلال هذا الوصف للمجتمع ندرك ان مقوماته هى. مجموعة

الناس الذين يعيشون فى مكان واحد تجمعهم فكرة معينة توحد مشاعرهم وينبثق عن هذه الفكرة نظام يعالج مشاكلهم . فتكون عناصر المجتمع هى اناس وافكار مشاعر وانظمة . وعند النظر الى هذه العناصر فاننا نجد ان منها ما هو غير قابل للتحويل ومنها ما هو قابل لذلك . فالانسان من حيث هو انسان فانه غير قابل للتحويل عن انسانيته فهو انسان منذ ان خلق وحتى الآن فلم يطرأ عليه أى تغيير باعتباره انساناً .

اما الافكار والمشاعر والانظمة فانها كلها فيها قابلية التغيير والتحول . فاذا ما اردنا معرفة سبب تحول أى مجتمع من المجتمعات فانه يجب علينا ان نصب تفكيرنا على الافكار التى يحملها وعلى المشاعر التى تحركه وعلى النظم التى يحدد بها علاقاته ويعالج بها مشكلاته . ومن خلال معرفتنا لهذه الامور نستطيع ان نحدد السبب الذى يتحول المجتمع بموجبه . إذاً فتحول أى مجتمع انما يكون بسبب تحول ما عند الناس من افكار ومشاعر وانظمة .

وقد يتحول المجتمع تحولا تاماً ، وقد يتحول تحولا جزئياً ، فاذا حصل التحول بسبب تغيير الافكار والمشاعر والانظمه فانه يكون تحولا تاماً وتكون لهذا المجتمع ميزاته الخاصة به ويكون مجتمعاً متماسكا قوياً يصعب التغلب عليه ، اما اذا حصل التحول بسبب تغيير الافكار والمشاعر دون الانظمة او كان التحول بالانظمة دون الافكار والمشاعر فانه يكون قد تحول تحولا جزئيا فيصبح مجتمعاً لا لون له، أفكاره غير انظمة الحياة عنده، وانظمة الحياة عنده

لم تنبثق عن افكاره . . . فيكون مجتمعاً هشاً ، يسهل التغلب عليه عند اقرب فرصة سانحة .

وبهذا يكون قد اتضح لنا تمام الوضوح معنى الصراع والصراع الطبقى او الاجتماعى وقد اتضح لنا ايضاً السبب الذي يحصل بموجبه الصراع الطبقى أو الاجتماعى وقد اتضح ايضاً انه لا علاقة للصراع الطبقى أو الاجتماعى بوجود طبقة عاملة ووجود ارباب عمل ثم اتضح لنا ما معنى المجتمع وما هى مقوماته وما الامور التى يتم بموجبها تحول أى مجتمع الى مجتمع آخر سواء اكان تحولا تاماً ام تحولا جزئياً .

فاين هذا كله من واقع الرأى الذى يراه الاشتراكيون الشيوعيون من ان اسباب تحول المجتمع الرأسمالى الى مجتمع اشتراكى شيوعى انما هو بسبب صراع المتناقضات او بسبب الصراع الدائر بين الطبقة العاملة وطبقة اصحاب رؤوس الاموال !؟

وبعد هذا البيان يجدر بنا ان نناقش ما يراه الماديون فى اسباب تطور العلاقات فى المجتمع .

﴿اسباب تطور العلاقات الاجتماعية﴾

يرى الماديون ان سبب تطور العلاقات الاجتماعية هو الحالة التى تكون عليها وسائل الانتاج ؛ فوسائل الانتاج هى التى تحدد العلاقات الاجتماعية عندهم ، وتطور وسائل الانتاج هو السبب فى تطور العلاقات الاجتماعية .

ولبيان مقدار ما فى هذه النظرية من الخطإ اريد ان اورد هنا قصتين وحدثين اما القصتان فان احداهما قد حصلت معى فى مدينه

حلب عام ١٩٧٨م . واما القصة الثانية فقد حدثت منذ اكثر من الف واربعمائه عام فى مكة المكرمة .

واما الحدثان فان احدهما قد حصل فى أكبر دولة اشتراكيه شيوعية فى العالم عام ١٩١٧م واما الحدث الثانى فانه قد حصل فى المدينة المنورة قبل اكثر من الف واربعمائة عام . ولنبدأ يالقصة التى حصلت معى فى حلب عام ١٩٧٨م . كنت جالساً مع نفر قليل من الناس فى أحد المحال ، وكنا نتحدث عن الرسول ، وكيف يعرف الرسول من مدعى الرسالة، وكان السؤال موجهاً إلى فقلت، لا يجوز الايمان بأى رسول الا اذا قام الدليل القاطع على صدق رسالته ، وذلك لاحتمال ان يكون دعياً كذابا ، فاذا جاء بالدليل القاطع وجب الايمان به على انه رسول ، واذا لم يأت بالدليل القاطع فإنه يكون كذابا دعيا . والدليل القاطع هى المعجزة التى يؤيد الله بها رسله . . . ثم ذكرت على سبيل المثال السيد المسيح وذكرت من معجزاته كيف انه قد صنع طيراً من طين وبعد ان نفخ فيه دبت فيه الحياة باذن الله فصار طيراً يطير . . . ثم ذكرت كيف انه دعا لميت فاحياه الله له . . . فوجئت وانا اتكلم بشخص يقول : يا استاذ هذا حصل منذ عهد ليس بالقريب، وما يدرينا إذا كان ذلك قد حصل بالفعل ام انه كان خدعة، خاصة وان الناس كانوا يخدعون فى القديم . . . ثم دخل مباشرة فى موضوع نظرية تطور المجتمع وتطور علاقاته فقال يا استاذ نحن نعيش واقع وهذا الواقع يجب ان نأخذ افكارنا منه وانه من الواضح جداً ان علاقات الناس انما تحددها وسائل الانتاج التى عندهم . . . ثم قال انا مثلا فلاح كانت عندى بقرتان وكنت احرث

عليهما فكان اذا قصرت احداهما كنت اضربها بالعصا حتى تمشى وتلحق باختها . وكان هذا النمط من التعامل ينعكس على تصرفى فى البيت ، فكنت اذا وجدت ان زوجتى قصرت فى عمل ما من الاعمال المنزلية كنت اضربها بالعصا حتى لا يحصل مثل ذلك القصور مرة ثانية . اما اليوم فانا احرث على جرار فاذا ما تعطل ووقف فاننى لا اعالجه بالضرب . بل اتفقد الزيت/البترول/الكهرباء . . . حتى أرى الخطأ فاصلحه، وهذا النمط قد انعكس على سلوكى فى البيت. فانا اليوم لا اعالج القصور الذى يحصل من زوجتى بالضرب بالعصا ، بل اسأل عن سبب القصور ثم اعالجه . . . قلت له ماذا تريد ان تقول بالضبط ، قال : اريد ان اقول ان علاقاتنا تحدد بحسب وسائل الانتاج التى تكون عندنا . . . قلت اكل وسيلة انتاج تحدد علاقات؟! قال نعم . قلت او مقتنع انت بهذا ؟!! قال لا بل معتقد به . قلت له يلزم من كلامك هذا ان القصاب عند ما يجد قصوراً من زوجته ان يعالجها بالسكين كما يعالج الشاة المذبوحة فيشرح جسمها تشريحاً ويجب ان تكون معالجة الحداد لزوجته بان يضعها فى البوثقه حتى تصبح حمراء ثم يضعها على السندان ويطرقها بالطرقة حتى تستقيم ، ويلزم من قولك هذا ان النجار يجب عليه ان يعالج زوجته بالمطرقة والمسحاة والمنشار . . . كنت اتكلم وانا انظر فى وجوه الحاضرين ثم نظرت اليه فلم اجد الا مكانه .

اما القصه الثانية فان بطلها كان بلال بن رباح رضى الله عنه ، كان بلال عبداً مملوكاً لأمية وكان بسبب دماثة خلقه وحسن صوته وبراعته فى فن الاتجار . . . قد نال أعلى درجات الرضا عنه من

قبل سيده ومن قبل كل من كان يتعامل معهم . وبسبب ارتباط عمله بالتجارة لسيده اميه فقد ارتبط مع ابى بكر الصديق رضى الله عنه برباط قوى من الصداقة . كانت من العادات الجاهلية ان تستأذن اصنامها عندما تريد ان تقوم بعمل ما . وكانت هذه العادة عند قريش كذلك . فكان احدهم اذا اراد السفر للاتجار يأتى الى هبل فيقدم لسادنه الهدايا والقرابين ويتقرب من هبل بالصلوات والدعاء وعندها يسحب السادن لهذا الشخص سهما من جعبة وضعت بقرب هبل ، فاذا خرج على السهم اشارة افعل فرح ذلك الشخص فرحاً شديداً واعتقد ان هبل قد رضى عن عمله وقد اذن له فيه ، اما اذا خرجت اشارة لا تفعل على السهم حزن الشخص حزناً شديداً ثم عاد بمزيد من الهدايا والقرابين والدعاء فيسحب له السادن سهما آخر وهكذا حتى تطلع على احد هذه الا سهم اشارة افعل . . . وكان بلال لا يختلف عن هؤلاء فانه كان كلما اراد السفر للاتجار ذهب الى هبل وتقرب اليه بالهدايا والقرابين ثم يسحب له سهم وهكذا حتى يخرج له سهم عليه اشارة افعل . . . فيرتاح لهذا الاذن من قبل هبل ويظن ان سفره سيكون موفقاً لان هبل قد اذن له بذلك . . .
وذات ليلة ـ وبعد مبعث الرسول محمد ﷺ بقليل ـ طرق الباب على بلال برفق فهرول بلال نحوى الباب وهو يظن ان سيده ربما يريد منها أمرآما . فاسرع فى فتح الباب واذا هو وجها لوجه مع صديقه ابى بكر ، هتف بلال بصوت خافت ابابكر ما جاء بك الساعة ؟! لم لم ترسل انت إلى حتى آتى انا الى عندك ؟! قال ابوبكر صه وتعال معى فانى أريدك لأمر يهمك . امر يهمنى ؟ قالها

بلال فى دهشة واستغراب/لأنه لم يكن للعبد مهما علا شأنه امر خاص بـه/قال ابوبكر نعم هو ما قلته لك . خرج بلال وسار خلف ابى بكر واتجها نحو البيت الحرام . . . الى اين يا ابابكر ؟!! قالها بلال فى حيرة . قال ابوبكر الى عند رسول الله محمد ﷺ لتسمع منه ويسمع منك فإن احببت ما يقوله لك دخلت فيما دخلت انا فيه ، وان كرهت ما يقال لك فانك لا تجبر على شىء لا تقتنع به . . . انصفت ، قالها بلال لأبى بكر . ثم دخلا بيت الارقم بن ابى الارقم وهناك اجتمع بلال برسول الله ﷺ وبعد فترة قصيرة خرج من عنده ، خرج بلال من عند رسول الله ﷺ . بغير الفكر الذى دخل به عليه ، خرج وهو يسأل نفسه : ما هذا ؟! كيف لم يخطر على بالى ذلك ؟!! كيف نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع؟! ألم نصنعه نحن بأنفسنا ؟! كيف نتوسل إليه وهو لايسمع؟!. كان بلال يسير تائه اللب فساقته قدماه فاذا هو فى البيت . بل فاذا هو امام إلهه الاعظم هبل ! هتف بلال: هبل! انت الذى كنت اعبده ! انت الذى كنت اخشاه ! انت الذى كنت اتقرب اليه بالدعاء والقرابين ! هبل انت حجر لا تضر ولا تنفع . هبل انت لم تستطع ان تدفع الاذى عن نفسك عند ما كسرت يدك . هبل انت لم تستطع ان تخلق لنفسك يداً حتى اجتمعت قريش فصنعوا لك يداً من ذهب . هبل انى اريد ان ابصق عليك فان كنت الهاً قادراً فادفعها عن نفسك أو فأرددها على .

هذا هو معنى القصة . فأى وسيلة انتاج غيرت علاقة بلال مع أكبر اله له وهو هبل . بلال كان بعد العصر يقدم لهبل الهدايا

والقرابين وبعد منتصف ليله يوم ذلك العصر يبصق فى وجهه فأي وسيلة انتاج تغيرت وغيرت ما بين العصر وبين منتصف ليل يوم ذلك العصر ؟!

واما الحدثان فان احدهما قد حصل فى المدينة المنورة عند قيام الدولة الاسلامية الاولى فقد جاء نفر الى رسول الله ﷺ من المدينة وبايعوه بعد ان آمنوا به ثم طلبوا منه ان يرسل معهم من يعلمهم القرآن فارسل معهم مصعباً . ولم يمض على ارسال مصعب الا سنة واحدة حتى تغيرت علاقات اهل المدينة من علاقات جاهلية الى علاقات اسلامية مع ان شيئاً من وسائل الانتاج لم يطرأ عليه أى تغيير . فأهل المدينة كانوا أهل حرث قبل مجيىء مصعب اليهم وقد بقوا اهل حرث بعد مجيئه اليهم ووسائل انتاجهم كانت هى هى قبل مجيئه وبعد مجيئه . ومصعب نفسه لم يسألهم عن وسائل انتاجهم فضلا عن تغييرها، فهل كان سبب تغيير علاقات اهل المدينة من علاقات جاهلية الى علاقات اسلامية هى وسائل الانتاج ؟!

واما الحدث الثانى فانه قد حصل فى روسيا القيصرية نفسها، كانت العلاقات فيها قبل قيام الثورة الشيوعية بيوم واحد علاقات اقطاعية برجوازية وبعد اعلان الثورة تحولت العلاقات من علاقات اقطاعية برجوازية الى علاقات اشتراكية شيوعية . فهل حصل ذلك بسبب تغيير وسائل الانتاج ؟! ام انه حصل بسبب تغير النظام ؟!

ثم ان هناك دولا تملك وسائل انتاج مثل الوسائل التى فى روسيا ومع ذلك فان علاقاتهم لم تكن علاقات اشتراكية شيوعية .

وقد يقال، ان اصحاب النفوذ فى تلك الدول هم الذين يبطئون عجلة التطور فيضعون قيوداً تحول دون تطور علاقات المجتمع .

والجواب على ذلك هو : اذا كان التطور أمر حتمى ، واذا كان التطور يشمل للانسان نفسه ، واذا كان الانسان نفسه يسير فى عجلة التطور كما يسير السن فى الدولاب فكيف يستطيع الانسان ان يعطل او ان يبطىء التطور الذى هو حتمى الحصول ؟!

ثم انه يحصل فى الدول الاشتراكية مثل ما يحصل فى الدول الأخرى، وما حصل فى شيكوسلوفاكيا لاكبر دليل على ذلك. فعند ما ارادت شيكوسلوفاكيا ان تعود الى النظام الديمقراطى وتترك النظام الاشتراكى اجتاحتها دبابات روسيا السوفياتية وأرغمتها على البقاء فى النظام الاشتراكى وعلاقاته. بل لقد حصل مثل ذلك فى روسيا نفسها، فعند ما قامت الثورة الشيوعية فيها ، فان البلاشفة قد سحقوا جميع خصومهم ثم فرضوا على روسيا النظام الاشتراكى الشيوعى، فقد نقل لنا وليم خورى ترجمة عن جان بروها فى كتاب تاريخ الاتحاد السوفياتى ما نصه . ودعا كيرينسكى مجلساً جديداً فى ٢٠ اوكتوبر «تشرين اول» لتدعيم سلطته سمى مجلس الجمهورية المؤقت الذى انشأه المؤتمر الديمقراطى ، وهكذا بدأ الصراع بين كيرينسكى والبلاشفة . كان البلاشفة يتمتعون بالاكثرية فى سوفيات بطر سبرج الذى انشىء فى ١٨ - ايلول . وقد جمع لينين الذى عاد سراً الى روسيا اللجنة المركزية للحزب البلشفى فقررت الثورة الفورية المسلحة فى ٢٢ اوكتوبر وقد تشكلت لجنة ثورية لدى سوفيات العاصمة واخذ الحرس الأحمر الذى تشكل بعد فشل هجوم تموز يزداد قوة

وتنظيماً . اما كيرينسكى فقد راح من جهته يهيىء المقاومة فعلم لينين بذلك فاطلق نداءه الى القتال «ان الحكومة تتردد فيجب الا جهاز عليها بأى ثمن ان التأجيل فى العمل معناه الموت .» وفى ليلة السادس من تشرين الثانى وصل لينين الى معهد سمولنى مركز سوفيات بطر سبرج واللجنة المركزية للحزب البلشفى وفى اليوم التالى قامت القوات المنضمة الى الثورة والحرس الأحمر باحتلال مركز الهاتف والبريد والمحطات ومصانع الكهرباء ومستودعات الفحم والبترول والقمح ومصرف الدولة والوزارات والجسور على نهر نيفا وقد صوبت الدارعة «اورورا» مدافعها على قصر الشتاء حيث كان يجتمع الوزراء الذين ثم اعتقالهم باستثناء كيرينسكى الذى فريفتش عن نجدات . وفى مساء السابع من تشرين الثانى قرر مؤتمر السوفيات الحادى عشر ان يتسلم الحكم وكان هذا المؤتمر مؤلفاً باكثرية من البلاشفة .

وبذلك انتصرت الثورة وبقى عليها ان تؤسس بعد ذلك الجمهوريات الاشتراكية السوفياتيه» ١هـ وهذا يدل على ان الثورة إنما انتصرت بقوة السلاح ، فلماذا لم ينتظر لينين حتى تتطور وسائل الانتاج وعندها يتطور المجتمع السوفياتى تبعاً لتطور تلك الوسائل .؟! بل ان لينين يقول ـ ان التاجيل فى العمل معناه الموت .» وهذا يعنى انه ان اجل القيام بالثورة فمعناه ان الثورة سوف تموت واذا ماتت الثورة فان روسيا ستبقى علاقاتها على ما هى عليه علاقات اقطاعية برجوازية . . .

وبهذا يظهر لنا انه لا توجد اى علاقة بين تطور العلاقات وبين

تطور وسائل الانتاج لا من قريب ولا من بعيد وان العلاقات انما تحدد حسب النظم القائمة فى المجتمع وأن العلاقات تتغير تبعاً لتغير تلك النظم . وان هذه النظم ان كانت منبثقة عن عقيدة صحيحة توافق ما فطر عليه الانسان فانها تكون نظماً عادلة تعالج مشاكل الانسان علاجاً صحيحاً فتشبع له غرائزه وحاجاته العضوية اشباعاً صحيحاً. تنظمها ولا تطلقها وتشبعها ولا تكبتها وتحدد علاقاته تحديداً صحيحاً يملأ العقل قناعة والقلب طمأنينة وعندها يعيش الانسان فى ظل هذه النظم فى أمن واستقرار وسعادة وهناءة .

واما اذا كانت النظم لم تنبثق عن عقيدة صحيحة توافق ما فطر عليه الانسان فانها تكون نظماً جائرة تجلب للانسان الشقاء وعدم الاستقرار فيظل افراد مثل هذا المجتمع فى قلق دائم .

اما كيف يتم وجود مثل هذه النظم فى المجتمعات وكيف يتم تحويلها . فانه انما يتم ذلك بحسب حالتين اثنتين .

الحالة الاولى ان تنثق هذه النظم عن عقيدة وافكار نفس المجتمع . ومثل هذه النظم لا تتغير الا اذا وجدت فى المجتمع عقائد وافكار وقناعات جديدة هى اصح من العقائد والافكار والقناعات السابقة وعند حصول القناعات بهذه العقائد والافكار الجديدة فى المجتمع يتحول المجتمع من حالته السابقة الى الوضع الجديد الذى اقتنع به .

الحالة الثانية ـ هى ان تأتى قوة سياسية فتفرض آراءها السياسية وما ترتئيه من نظم على المجتمع ومثل هذه النظم يلفظها المجتمع

بأول فرصة سانحة له وذلك لانها لم تكن هذه النظم منبثقة عن قناعات الافراد الذين يحكمون بهذه النظم . والخلاصة هى أن وجود النظم يكون اما ان تنبثق عن قناعات وافكار المجتمع واما ان تفرض على المجتمع من قبل قوة سياسية . وتغيير هذه النظم يكون .

اما ان توجد فى المجتمع افكار وقناعات جديدة هى اصح من الافكار والقناعات السابقة واما ان تتغير القوة السياسية/التى فرضت النظام على المجتمع/بقوة سياسية اخرى .

هذه هى حقيقة العلاقات وهذا هو واقعها وهذه هى الامور التى توجدها وهذه هى الامور والاسباب التى تغيرها . . . والناظر اليها جميعها لا يجد اى علاقة لوسائل الانتاج بتطورها لا من قريب ولا من بعيد .

﴿ انتقال الماده ﴾

يرى الماديون ان التطور هو انتقال المادة من حالة الى حالة افضل منها انتقالا حتمياً ، وان التطور يكون اولا تطوراً كمياً ثم يتراكم هذا التطور الكمى فيحدث طفرة فى التطور فيحصل التطور الكيفى وعند وجود التطور الكيفى تتحول المادة بموجبه عن حالتها التى هى عليها الى حالة اخرى تكون افضل من الحالة التى كانت عليها .

ويرون انه بسبب عامل التطور الكمى فالكيفى قد تحول الانسان بموجبه عن اصل قرد متقدم فى التطور الى حالة انسان كما

هو عليه الآن . . . ويطلقون على هذه النظرية نظرية النشوء والترقى .

اقول : ان الناظر الى هذه النظريات وإلى واقع ما عليه المادة فانه لا يجد أي تطابق بينهما .

فبالنسبة لحركة المادة وانتقالها فان المشاهد ان المادة قد تنتقل الى حالة افضل من الحالة التى كانت عليها وذلك مثل انتقال الانسان من سن الطفولة الى سن الشباب وقد تنتقل الى حالة ادنى من الحالة التى كانت عليها مثل انتقال الانسان من سن الشباب الى سن الكهولة وقد تنتقل المادة الى حالة أسوء من الحالة التى كانت عليها مثل انتقال الانسان بعد الموت الى رفاة .

اما بالنسبة الى الحركة فانه قد يحصل بسببها تحول للمادة من حالتها التى هى عليها الى حالة اخرى . مثل حركة اجسام الكائنات الحية وقد لا يحصل بسبب الحركة تحول للمادة وذلك مثل حركة مكونات الذرة .

وبهذا يبطل قولهم ان المادة تنتقل الى حالة أفضل كما يبطل قولهم بان الانتقال بسبب الحركة يكون حتمياً .

واما بالنسبة الى نظريتهم القائلة بان الانسان تطور عن اصل قرد . . . فان هذا الكلام ليس عليه أى دليل لا عقلى ولا نقلى .

فالعقل مجاله الواقع والآثار الدالة على وجود واقع . والواقع ان المخلوقات اجناس مختلفة وكل جنس منها يشتمل على انواع كثيرة ولم يحصل فى الواقع المشاهد ان تحول جنس عن جنسه الى جنس آخر بسبب عامل التطور ، ولهذا فان العقل يرفض هذه النظرية لأنه لا يملك الدليل عليها .

واما النقل فانه لم ينقل لنا عبر التاريخ ولا دليل واحد على أن جنساً ما قد تحول بعامل التطور الى جنس آخر مغاير للجنس الذى كان عليه .

وقد يقال ان التطور الكيفى الذى تتحول المادة بحسبه لا يحصل الا بعد مرور عدد كبير من السنين .

والجواب : اذا كانت آخر مرة قد حصلت فى عصر تدوين التاريخ فان التاريخ لم ينقلها لنا ولم يذكر لنا التاريخ انه حصل تحول لبعض الكائنات من حالتها الى حالة مغايرة للحالة السابقة ، واما اذا كانت آخر مرة قد حصلت قبل تدوين التاريخ. فكيف عرف الماديون ان ذلك قد حصل ؟!

وقد يقال ان الدليل على ذلك هو ما نشاهده من الشبه القوى بين الاجناس مما يدل على ان احدهما كان اصلا للآخر . . . او يقال اننا نعتمد على ما نشاهده من آثار قد اكتشفت فى احافير تدل على انتقال بعض الاجناس عن اصلها القديم الى اصل جديد مثل وجود هيكل عظمى لقردة فى مدافن الانسان .

والجواب على ذلك هو مايلى .

اما بالنسبة للشبه فان ذلك لا يعنى ابداً ان احد الشبهين قد كان اصلا للاخر، أو أن احدهما قد تحول عن أصله الى أصل آخر، فمثلا الغزال فيه شبه قوى بالمعزة ، واللاما فيها شبه قوى بالجمل ، والقط فيه شبه قوى بالنمر. والبطة فيها شبه قوى بالاوزة . . . وعبر التاريخ لم يذكر لنا ان غزالا ما قد صار معزاً او جملا ما قد صار لامه او هراً ما قد صار نمراً او بطة ما قد صارت اوزه . . .

ثم انه قد ثبت لنا بطريق القطع ان المادة قد تتحول الى حالة ادنى من الحالة التى كانت عليها فلماذا رجح الماديون ان يكون اصل الانسان قرداً ولم يرجحوا ان اصل القرد كان انسانا ؟!

وبهـذا يظهر لنا بطلان ان يكون أحـد الشبهين هـو اصل للشبه الآخر .

واما بالنسبة لما يوجد فى الاحافير وان هذه الآثار دالة على ما ذهبوا إليه فباطل ايضاً وذلك لأن ما وجد فى بعض الاحافير هى آثار ، والآثار تكون دليلا على وجود المؤثر عند احداثه الاثر، وعلى وجود امور تتعلق بالمؤثر بقدر ما يدل عليها الأثر نفسه فقط .

فاكتشاف هيكل عظمى للدينا صور مثلا يـدل على ان هـذا الحيوان قد كان له وجود فى الزمن الماضى، وشكل الهيكل العظمى يدلنا على ان هذا الحيوان كان من ذوات الاربع وانه كانت له رقبه طويلة وذيل طويل معقدثخين . . . ولكن لا نستطيع ان نصفه بأنه كان حيواناً اليفاً ام كان مفترساً ولا نستطيع ان نحكم بأنه كانت تخرج من فمه النار مثلا ولا نستطيع ان نعطيه أى وصف زائد عن ما يدل عليه نفس الأثر .

ثم ان واقع الاشياء على ما هى عليه هوامر قطعى مشاهد فلا يصح ان نحكم عليها انها كانت على خلاف هذا الواقع الا اذا قام دليل قطعى على ذلك. وذلك لان الامور القطعية لا ينفى وجودها بالظن .

واما اكتشاف جماجم فى مدافن موتى الناس وان هذه الجماجم هى جماجم لقردة او اكتشاف هيكل عظمى لقردة فى مدافن الناس

فان هذا لا يدل على اكثر من ان القردة قد كان لها وجود فى ذلك الزمن وان من عادة الناس انهم كانوا يدفنونها مع موتاهم لامر لا نعلمه . وعادة دفن اشياء مع موتى الناس لها وجود فى الواقع ، فنحن لا نزال نكتشف فى مدافن القدماء نقودا معدنية ونكتشف جراراً يدل على انها كانت مليئة بالنبيذ ونكتشف قوارير تدل على انه كان بها زيت الزيتون . . . فقد يكون دفن هذه الاشياء من اجل التبرك بها ، وقد يكون بسبب اعتقاد كان سائداً بان للميت حياة غير هذه الحياة وهو يحتاج فيها الى النقود او الزيت او النبيذ . . . وقد يكون دفن النقود بسبب نظام الارث وان الميت لا تورث عنه امواله النقدية بل تدفن معه . وقد يكون دفن هذه الاشياء بسبب اعتقاد بها وانها تطرد الارواح الشريرة عن الميت. ومع كثرة هذه الاحتمالات فانه لا يرد ولا أى احتمال على ان الاشياء التى تدفن فى مقابر ومدافن الانسان انما تكون اصلا له وانه قد تحول بعامل التطور الكيفى عن ذلك الأصل .

وبهذا يظهر لنا ان المادة ليست ازلية وانها تخضع فى جميع حركاتها وتحولاتها الى نظام خاص بها وحسب نسب معينة فرضت عليها من غيرها وهى لا تستطيع الا ان تخضع لهذا النظام وإلا ان تستجيب لهذه النسب . وان لكل مادة نسب خاصة بها عن غيرها فنسبة درجة انصهار الحديد مثلا غير نسبة انصهار النحاس أو الرصاص أو القصدير . ويظهر لنا تماماً ان هذه النسب قد فرضت على هذه المواد فرضاً، وان الذى فرض هذه النسب على المادة ألزمها التحول بموجبها فهى لا تستطيع الا ان تستجيب لهذه النسب .

فالماء مثلا يتحول الى جليد عند نسبة معينة من البرودة فاذا وجدت هذه النسبة فان الماء لا يستطيع الا ان يتحول إلى جليد واذا سلطت عليه درجة حرارية معينة يتم بموجبها تحوله الى بخار فانه يتحول الى بخار عند تلك النسبة المعينة له ولا يستطيع التخلف او الخروج على هـذه النسبة وهكذا فاننا نجد ان المادة خاضعة فى حركاتها وتحولها الى غيرها وان الذى أوجد لها النظام الـذى تتحرك بحسبه وأوجد لها النسب التى تتحول بموجبها هو الذى ألزمها بما فرض عليها من نظام ونسب واخضعها لهذا النظام ولتلك النسب خضوعاً تاماً .

هذا هو واقع ما عليه المادة .

وبعد ادراكنا لواقع ما عليه المادة ندرك ان عقيدة المبدإ الاشتراكى الشيوعى هى عقيدة باطلة لانها قد اخذت من نظرة الانسان الى المادة بدون ان يدرس المادة نفسها دراسة تمكنه من معرفة ما هى حقيقتها . وندرك ان كل ما بنى على هذه العقيدة من نظريات وما انبثق عنها من نظام فهو باطل وذلك لان كل ما بنى على باطل فهو باطل وهذه النظم قد بنيت على عقيدة باطلة فهى باطلة .

هـذه هى المبادىء الثلاثة ، وهـذا هو سبب ولادت كل مبدإ منها ، وهـذه هى الطرق التى جاء منها كل مبدإ من هـذه المبادىء الثلاثة ، وهذه هى حقيقة واقعها التى هى عليها . . . وما على القارىء الكريم الا ان يقرأ هذه المبادىء الثلاثة قراءة تأنى وامعان بعد ان يقرأ «الانسان» ليدرك حقيقة ما عليه هذا الانسان ، وعلى القارى ان يجرد نفسه ـ وهو يقرأ هذا الكتاب ـ من أى ميل

أو هوى شخصى ، وان يحصر ميله وهواه فى البحث للوصول الى الحقيقة ذاتها ، وان يستعمل فكره ـ وهو يبحث عن الحقيقة ـ بعمق واستنارة . وعندها فانه سيجد نفسه امام الحقيقة نفسها وجهاً لوجه ، وعليه بعد ذلك ان يختار لنفسه الامر الذى يريده ، فاما ان ينقذ نفسه من الضلال والتيه والضياع ويضعها على الطريق المستقيم ، واما ان يبقى ضالا تائها فى هذه الحياة ، لاهياً عما قبل هذه الحياة وعما بعدها وعن علاقتها بما قبلها وبما بعدها . قال تعالى : «ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها .»

وقال تعالى : «يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه فاما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيراً وينقلب الى أهله مسروراً وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً .»

وقال تعالى : «افحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .»

وقال تعالى : «وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً .»

هذا والله اسأل ان يلهمنا الصواب الرشد فى القول والعمل وان يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

الموضوع	رقم الصفحة
٢٥- الأدلة العقلية القاطعة على أن القرآن هو كلام الله قطعا	٨٦
٢٦- الدليل القاطع على أن محمداً رسول الله	٩٤
٢٧- الأدلة على عصمة الرسول	٩٧
٢٨- مولد المبدإ الأسلامى	١٠٥
٢٩- الصراع الفكرى فى مكة	١١٣
٣٠- المبدأ الاسلامى بين مكة والمدينة	١٢٥
٣١- مولد المبدإ الديمقراطى الرأسمالى	١٣٧
٣٢- الحل الوسط	١٤٤
٣٣- عقيدة المبدإ الديمقراطى الرأسمالى	١٤٧
٣٤- النظام الديمقراطى الرأسمالى	١٥٦
٣٥- الحريات	١٥٩
٣٦- مولد المبدإ الاشتراكى الشيوعى	١٦٧
٣٧- نظرية التطور المادى	١٦٩
٣٨- تعريف المادة	١٧٠
٣٩- حركة المادة	١٧١
٤٠- اسباب حركة المادة	١٧٢
٤١- حقيقة التناقض ما هى ؟	١٧٣
٤٢- اسباب تطور المجتمع	١٨٢
٤٣- الصراع والصراع الطبقى	١٨٥
٤٤- المجتمع	١٨٩
٤٥- اسباب تطور العلاقات الاجتماعية	١٩١
٤٦- انتقال المادة	٢٠٠